الباب السادس والعشرون

إيطاليا قبل النهضة

١٠٥٧ — ١٣٠٨

الفصل الأول

صقلية فى عهد النورمان

من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم بما ينفق مع البيئات الكثيرة المختلفة التى حلوا بها من اسكتلندة إلى صقلية ، وأنهم أيقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الراقدة ، وأن رعاياهم قد امتصوهم امتصاصاً كاملا فى عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

لقد ظلوا مائة عام مفعمة بالاضطرابات يحكمون جنوبى إيطاليا التى كانوا فيها خلفاء للبيزنطيين ، وصقلية التى ورثوها عن المسلمين . فقد شرع روجر جسكارد Roger Guescard يغير على هذه الجزيرة بجماعة قليلة العدد من القراصنة فى عام ١٠٦٠ ، فلم يحل عام ١٠٩١ حتى تم له الاستيلاء عليها ، واعترفت إيطاليا بحكمه فيها عام ١٠٨٥ ، فلما مات (١٠١١) كانت « الصقليتان » — الجزيرة وجنوبى إيطاليا — قد أصبحتا ذواتى شأن فى السياسة الأوربية . وكانت سيطرة مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وأفريقية ، قد أكسبت النورمان ميزات تجارية وحربية عظيمة ، وأضحت مدائن أملفى ، وسلرنو ، وبالرم مراكز للتجارة الناشـــطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها

مراكز التجارة الإسلامية فى بلاد تونس وأسبانيا . وأضحت صقليه وقتئذ إقطاعية بابوية فحولت المساجد الإسلامية كنائس فخمة زاهية ، وحل القساوسة الروم الكاثوليك محل المطارنة اليونان فى إيطاليا الجنوبية .

واتخذ روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) مدينة بالرم عاصمة لملكه ووسع أملاكه فى إيطاليا حتى ضمت نابلى وكپوا ، ورفع لقبه فى عام ١١٣٠ من كونت إلى ملك . وكان له من الطموح والشجاعة ، والدهاء وسعة الحيلة ما لعمه ربرت جسكارد ؛ فقد كان نابها يقظاً فى تفكيره ، نشيطاً فى عمله إلى حد جعل الإدريسى المسلم كاتب سيرته يقول عنه إنه قد أنجز وهو نائم مالم ينجزه غيره من الرجال وهم أيقاظ . وكان يقاومه البابوات لأنهم يخشون اعتداءه على الولايات البابوية ، ويقاومه الأباطرة الألمان الذين ساءهم استيلاؤه على أبرزى Abruzzi ، والبيزنطيون الذين كانوا يحلمون باسترجاع إيطاليا الجنوبية ، ومسلمو أفريقية الذين كانوا يتوقون إلى استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً ، وكان فى بعض الأحيان يحارب عدة طوائف منهم فى وقت واحد ، وخرج من حربهم ومملكته أعظم مما كانت حين جلس على عرشها ، وقد ضم إليها أملاكاً جديدة هى مدائن تونس ، وصفاقس ، ووهران ، وطرابلس . واستعان بمن فى صقلية من النابهين المسلمين ، واليونان ، واليهود ، لتنظيم أداة حكومية مدنية وبيرقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى فى أوربا وقتئذ . وأبقى على نظام الزراعة الإقطاعى فى صقلية ، ولكنه كبح جماح البارونات بفضل الحكمة الملكية التى كانت قوانينها تفرض على جميع الطبقات . وقد أصلح نظام صقلية الاقتصادى بأن جاء إليها بناسجى الحرير من بلاد اليونان ، ووسع نطاق التجارة بتأمين الناس على حياتهم فى حلهم وترحالهم وعلى أملاكهم . ومنح المسلمين واليهود ، واليونان ، والكاثوليك حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافى ، وفتح أبواب المناصب العليا للذوى المواهب على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، وليس فى الثياب الإسلامية التى يلبسها رجال الدين

المسلمون ، وعاش معيشة ملك لا تيني فى بلاط شرقى . وظلت مملكته جيلا من الزمان « أغنى دول أوربا وأعظمها حضارة[٢] » ، وكان هو أكثر ملوك زمانه استنارة[٣] ، ولولاه لما وجد فردريك الثانى ، وهو ملك أعظم منه .

وفى وسعنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية فى عهد النورمان باطلاعنا على كتاب رجارى[*] للإدريسى . فقد كان فيها فلاحون أقوياء مجدون يفلحون أرضها الخصبة ويخرجون الزرع ويمونون المدن . نعم إنهم كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ويعانون ما يعانيه النافعون على أيدى الماهرين من استغلال ، ولكن تقواهم المشرقة كانت تكسب حياتهم كرامة ، وأعيادهم وحفلاتهم وأغانيهم كانت تملأ هذه الحياة بهجة وبهاء . فقد كان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصه وأغانيه ، وكان يصحب موسم جنى الكروم أعياد خمرية تجمع بين الساترناليا Saturnalia القديمة وحفلات التنكر الحديثة ، وحتى الفقراء أنفسهم بقى لهم الحب ، والأغانى الشعبية التى تختلف من الفحش والهجاء إلى الأناشيد الشعرية الموفية على الغاية القصوى من الحنان والعفة . ويقول الإدريسى عن بلدة « شنت ماركو »[**] (إن لها بادية ومزارع واسعة ومياه نابعة) وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الزكى الرائحة العطر الفائحة .

وعادت مسينا ، وقطانيا ، وسرقوسة إلى الازدهار كعهدها أيام القرطاجنيين واليونان ، والرومان ؛ وخيل إلى الإدريسى أن پالرم « هى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعلى فى بلاد الدنيا ، وإليها فى المفاخر النهائية

(*) هكذا يسميه المستشرقون أما اسمه الحقيق فهو « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وتوجد منه فى دار الكتب المصرية نسخة مطبوعة فى إيطاليا ومعها ترجمتها باللغة الإيطالية ، وهى التى نقلنا عنها النصوص الوارة هنا . (المترجم)

(**) هكذا يكتبها الإدريسى فى نزهة المشتاق والجزء المحصور بين قوسين غير موجود فى الأصل الإنجليزى ولكنا نقلناه للفائدة . (المترجم) .

القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف »(*) وقال عنها « ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ، ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها » وقال عن شارعها الأوسط : « فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، (وكثير من المساجد) والفنادق ، والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار . . . وشيدت بنيانها ونمقت بأعجب المغتربات ، وأودعت بدائع الصفات ، فشهد لها بالفضل المسافرون ، وعلّى فى وصفها المتجولون ، وقطعوا قطعا ألا مبانى أشرف من مغانيها ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن دورها مفازة الدور » . « ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين »(**) .

ولما شاهد ابن جبير الرحالة المسلم مدينة بالرمة فى عام ١١٨٤ صاح قائلا : إنها أم الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة . . . تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن . . . قد زخرفت فيها لملكها دنياه . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب »(†) .

وكان من يزورون بالرم يدهشون من كثرة اللغات المختلفة التى يتكلمها أهلها ، ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطاً لا يعكر صفوه ما بينهم من اختلاف ، ومن تجاور الكنائس المسيحية ، والمعابد الإسرائيلية ، والمساجد

(*) هذا الوصف هو المقابل لقول المؤلف إن الإدريسى يصف بالرم بأنها اجمل مدينة فى العالم . (المترجم)

(**) أضاف مؤلفنا هذا الجزء الأخير من وصف الإدريسى لبالرم فى آخر ما نقله عنه ، ولكن موضعه الصحيح من وصف الإدريسى قبل الجزء السابق . (المترجم)

(†) نقلنا هذا النص من كتاب رحلة ابن جبير المعروفة باسم « رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الأثار الكريمة والمناسك » تأليف أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى وهو يسميها بالرمة ، وتشتهر باسم المدينة ، ولكن الإدريسى يكتبها بالرم من غير تاء . (المترجم)

الإسلامية واختلاطها بعضها ببعض ، من ثياب أهلها الرشيقة ، وشوارعها الكثيرة النشاط والحركة ، وحدائقها الهادئة ، وبيوتها المريحة .

وكانت فنون الشرق تستخدم فى تزيين القصور والبيوت التى يقيم بها الفاتحون من أهل الغرب . كذلك كانت أنوال بالرم تنسج الأقمشة الحريرية الفخمة والثياب المطرزة بالذهب ، وكان صناع العاج يصنعون أقداحاً صغيرة مشكلة أو محفورة ذات صور خيالية غريبة أو فنية دقيقة . كما كان صناع الفسيفساء يغطون أرض البيوت ، وجدرانها ، وسقفها بالرسوم التى تمثل موضوعات شرقية . وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس ، والأديرة ، والقصور ، فلا يظهر فى هندستها أو فى زخرفها أثر للطراز النورمانى بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطى أو العربى من آثار الألف العام السابقة . وشاد الفنانون اليونان فى عام ١١٤٣ ديراً للراهبات اليونانيات بأموال وهبها چورچ أمير بحرية روچر وأهداه إلى سانتا ماريا دل أمرجليو Santa Maria dell Ammiraglio ولكنه يعرف الآن بالمرتورانا Martorana نسبة إلى مؤسسه . ولقد جدد بناء هذا الدير مراراً كثيرة حتى لم تبق إلا القليل من عناصره التى كان عليها فى القرن الثانى عشر . ويحيط بقبته الداخلية نقش عربى من ترنيمة مسيحية يونانية . وأرض الدير من الرخام البراق المختلف الألوان ، وبه ثمانية عمد من الحجر السماقى الملون تحيط بأقباء ثلاث ؛ وتيجان الأعمدة منحوتة نحتاً جميلا ؛ أما الجدران ، والأجزاء المثلثة التى بين العقود ، والقباب فتتلألأ فيها الفسيفساء الذهبية المشتملة على صورة شهيرة لملك الكون فى قبة المحراب . وأجمل من هذا الدير نفسه كنيسة القصر الخاصة Capella palatina التى بدأها روچر الثانى فى عام ١١٣٢ ، فكل ما فى هذه الكنيسة غاية فى الرونق والجمال : من رسوم الأرضية الرخامية البسيطة ، إلى العمد الرفيعة الدقيقة البالغة حد الكمال ، وتيجانها المختلفة الأشكال ، وقطع الفسيفساء البالغ عددها ٢٨٢ قطعة والتى تملأ كل فراغ ، وصورة المسيح الرهيبة

القائمة فوق المذبح والتى تعد من أروع ما فى العالم من نقوش الفسيفساء ، يعلو هذا كله سقف من الخشب على شكل قرص العسل ، منحوت أو مذهب ، أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة ، وريم ، وغزلان ، و « ملائكة » ، أكبر الظن أنها كانت صوراً مما يحلم به المسلمون فى جنات النعيم . وليس فى فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع هذه التحفة الفنية التى هى أثمن جوهرة فى صقلية النورمانية .

ومات رجار (روجر) فى عام ١١٥٤ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره . واستحق ابنه وليم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦) لقب « الخبيث » ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن سيرته قد كتبها أعداؤه ، وبعضه الآخر إلى أنه ترك مقاليد الحكم لغيره وعاش هو مترفاً منعما بين الخصيان والمحاظى . وثار فى أيامه المسلمون فى تونس على المسيحيين ، وقضوا على سلطان النورمان فى أفريقية . وعاش وليم الثانى (١١٦٦ — ١١٨٩) عيشة أشبه ما تكون بعيشة وليم « الخبيث » ، ولكن كاتبى سيرته لقبوه وليم « الطيب » ، ولعلهم لم يكن لهم غرض من وراء هذه التسمية إلا أن يحولوا دون اختلاط الأسماء . وأراد أن يكفّر عن انحلال أخلاقه بما أنفق من المال فى عام ١١٧٦ على دير منريل Monreale — « الجبـــل الملكى » — وكنيسته وهما على بعد خمسة أميال فى خارج پالرم . ويتألف بناء هذا الدير وتلك الكنيسة من خليط مشوّه من القواعد والعمد المتشابكة ؛ أما الأروقة فذات قوة وجلال ، وجمال ، ونقوش الفسيفساء ذائعة الصيت رغم فجاجتها ؛ وتيجان العمد غنية بالنقوش المحفورة التى تمثّل الحياة الواقعية — فيها نوح ثَمِل ونائم ، وراعى خنازير يعنى بخنزير ، وبهلوان واقف على رأسه .

ولعل ما انغمس فيه ملوك صقلية النورمان من النعيم قد أوهن بنيتهم وقصر آجالهم ، فقد ماتت أسرة روجر الثانى ميتة غير شريفة بعد أربعين عاماً من موته ،

ولم يعقب وليم الثانى أبناء فاختير للجلوس على العرش ابن غير شرعى لأحد أبناء روجر الثانى يدعى تانكرد Tancaed (١١٨٩) . وكان هنرى السادس إمبراطور ألمانيا قد تزوج فى هذه الأثناء من كنستانس Constance ابنة عمه وليم الثانى . وكان يتوق إلى توحيد إيطاليا كلها تحت تاج الإمبراطور ، فطالب بعرش الصقليتين ؛ وعقد حلفاً مع بيزا وجنوى اللتين كانت تجارتهما ترزح تحت سيطرة النورمان على وسط البحر المتوسط ؛ وفى عام ١١٩٤ وقف أمام پالرم بقوة عظيمة لا تقهر ، وأقنع أهلها بأن يفتحوا له أبوابها ، وتوّج فيها ملكا على صقلية . ولما مات (١١٩٧) ترك عروشه لابنه فردريك البالغ من العمر ثلاث سنين ، والذى صار فيما بعد أقوى الملوك المستبدين وأعظمهم استنارة فى القرن الثالث عشر الغنى بملوكه الأقوياء .

الفصل الثانى

الولايات البابوية

كانت دولة مدينة بنڤنتو تقوم فى شمالى إيطاليا النورمانية ، وكان يحكمها أدواق من أصل لمباردى . وكان من ورائها الأراضى التى تخضع لحكم البابوات الزمنى — « ميراث بطرس » — وتشمل أنيانى ، وتيڤولى ، وروما ، ثم تمتد من المدينة الأخيرة إلى پروجيا Perugia .

وكانت روما مركز المسيحية اللاتينية ، ولكننا لا نستطيع أن نعدّها أنموذجاً للمسيحية ؛ ذلك أنه لم تكن فى العالم المسيحى مدينة أقل منها احتراماً للدين ، إلا باعتباره إحدى مصالحها المكتسبة ، ولم يكن لإيطاليا فى الحروب الصليبية نصيب كبير ، فلم تشترك مدينة البندقية مثلا فى الحرب الصليبية الرابعة إلا لتستولى على القسطنطينية ، ولم تكن المدن الإيطالية تنظر إلى هذه الحروب إلا على أنها فى الأغلب الأعم فرص تمكنها من إنشاء ثغور ، وأسواق ، وتجارة فى بلاد الشرق الأدنى . وقد أجل فردريك الثانى حملته الصليبية إلى أبعد أجل مستطاع ، ثم أقدم عليها وفى قلبه أضعف قسط من العقيدة الدينية . ولسنا ننكر أنه كان فى روما رجال ذوو روح دينية رحيمة يساعدون الحجاج على تعهد أضرحة القديسين والاحتفاظ بها ، ولكن أصوات هؤلاء الرجال لم تكن تعلو على صخب السياسة وضجيجها .

وإذا ماغضضنا النظر عن البابوية ، وجدنا روما فى ذلك الوقت مدينة فقيرة ، فقد كان انتهاب النورمان إياها خاتمة ستة قرون من الدمار والإهمال ، نقص فيها عدد السكان إلى أربعين ألفاً أو نحوها ، وكان عددهم فى العهد القديم مليوناً . ولم تكن مركزاً للتجارة أو الصناعة ؛ وبينا كانت مدن إيطاليا الشمالية تتزعم الثورة

الاقتصادية ، كانت الولايات البابوية لاتزال تتلكأ متوانية فى النظام الزراعى الساذج ؛ فكانت حدائق الخضر ، والكروم ، وحظائر الماشية تختلط بالبيوت والخربات داخل أسوار أوريليا . وكانت الطبقات الدنيا من أهل العاصمة تعيش إما من صناعاتها اليدوية أو من الصدقات الكنسية ؛ أما الطبقات الوسطى فكانت خليطاً من التجار ، والمحامين ، والمدرسين ، ورجال المصارف ، وطلاب العلم والقساوسة المقيمين فيها أو الذين يأتون لزيارتها ؛ وأما الطبقة العليا فكانت من كبار رجال الدين وكبار الملاك الزراعيين . وكانت العادة الرومانية القديمة ، عادة امتلاك الأرض فى الريف والإقامة فى المدن ، لا تزال سائدة . وكان أشراف الرومان قد تجردوا من زمن بعيد من النزعة الوطنية العامة التى تؤلف بين قلوبهم وتدعوهم إلى الدفاع عن أنفسهم ، فانقسموا لهذا السبب شيعاً وأحزاباً تتزعمها الأسر الغنية القوية — الفرنجيپانى Frangipani ، والأرسينى Orsini ، والكولنا Colonna ، والبيرليونى Pierleoni ، والكيتانى Caetani ، والسافلى Savilli ، والكرسى Carsi ، والكنتى Conti ، والأنيبلدى Annibaldi . وجعلت كل أسرة مسكنها قلعة حصينة ، وسلحت أفرادها وأتباعها ، وكثيراً ما كانت تشتبك هى وغيرها من الأسر فى شجار فى الشوارع ، وتشتبك من حين إلى حين فى حروب أهلية . أما البابوات فلم تكن لهم إلا أسلحة روحية قلما يخشاها أحد فى رومة ، وأخذوا يكافحون عبثاً ليحفظوا النظام فى المدينة . وكثيراً ما كانوا يتلقون فيها الإهانات ، ويعتدى عليهم فى بعض الأحيان . وفر كثير منهم إلى أنانى ، أو فيتربو Viterbo أو بروچيا بل إن منهم من فروا إلى ليون وأخيراً إلى أڤنيون لينجوا من الموت أو يعيشوا فى هدوء وسلام .

وكان البابوات يحلمون بأن يقيموا حكماً دينياً تكفى أن تكون فيه كلمة الله ، كما يفسرونها هم ، هى القانون ؛ ولكنهم وجدوا أنفسهم لاحول لهم ولا طول بين استبداد الأباطرة وأجركية الأشراف ، ودمقراطية الشعب . وحافظت بقايا السوق

الكبرى والكپتول بين الرومان على ذكرى جمهوريتهم القديمة ، وكانت جهود تبذل من حين إلى حين لإعادة نظم الحكم الذاتى وأشكاله القديمة . وظل الأشراف القدماء يسمون الشيوخ وإن كان مجلس الشيوخ قد اختفى من الوجود . وكان القناصل ينتخبون أو يعينون ، وإن لم يكن بيدهم شيء من السلطان ، وكانت بعض مخطوطات قديمة ، نسيت أو كادت تنسى ، تحفظ للبلاد الشرائع الرومانية . وبعث قيام المدن الحرة فى شمالى إيطاليا فى أهل رومة روحاً جديدة ، فأخذوا يطالبون بالعودة إلى الحكم الذاتى المدنى لا الدينى ، واختاروا فى عام ١١٤٣ مجلس شيوخ مؤلف من ستة وخمسين عضواً ، وظلوا عدة سنين بعد هذا التاريخ يختارون له أعضاء جدداً فى كل عام . وكانت أحوال ذلك الوقت تتطلب صوتاً يرتفع بتغييرها ، ووجدت هذا الصوت فى رجل من أهل بريشيا Brescia يدعى أرنولد Arnold . وتقول الرواية المتواترة إنه درس على أبيلار Abelard فى فرنسا ثم عاد إلى بريشيا راهبا ، وبلغ من زهده وتقشفه أن وصفه برنار بأنه رجل « لا يأكل ولا يشرب » . وكان شديد التمسك بالدين القويم ، ولكنه ينكر صحة العشاء الربانى إذا قدمه القساوسة المذنبون . وكان يرى أن مما يجافى القانون الأخلاقى أن يكون للقس أملاك ، ويطالب بأن يعود رجال الدين إلى الفقر الذى كان يتصف به الحواريون ، وأشار على الكنيسة بأن تنزل للدولة عن جميع أملاكها المادية وسلطانها السياسى . وأدانه إنوسنت الثانى فى مجلس لاتران عام ١١٣٩ وأمره أن يلزم الصمت ، ولكن البابا أوچنيوس الثالث Eugenius III عفا عنه على شريطة أن يحج إلى عدد من الكنائس فى رومة . وكان هذا خطأ كريماً من البابا ؛ لأن منظر معالم الجمهورية القديمة ألهب خيال آرنلد ، فأهاب بالرومان وهو واقف وسط خرائب المدينة بأن ينبذوا حكم رجال الدين ، ويعيدوا الجمهورية الرومانية (١١٤٥) . وافتتن الشعب بحماسته فاختار قناصل وتربيونين ليكونوا هم حكامه الحقيقيين ، وأقام طائفة من هيئة من الفرسان ليكونوا قادة

فى جيش إقليمى للدفاع . وسكر أتباع آرنلد بخمرة هذا النصر الهين فلم يكتفوا بنبذ سلطة البابوات الزمنية بل نبذوا أيضاً سلطة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الألمان فى إيطاليا . ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فقالوا إن الجمهورية الرومانية يجب ألا تحكم إيطاليا وحدها بل أن تحكم « العالم » كما كانت تحكمه فى الزمن القديم[٥] . وأعادوا بناء الكبتول ، واستولوا على كنيسة القديس بطرس ، وأحالوها قلعة ، واستولوا على الفاتيكان ، وفرضوا الضرائب على الحجاج ؛ وفر أوچنيوس الثالث إلى ڤيتربو وپيزا (١١٤٦) بينما كان القديس برنار يصب اللعنات من كليرڤو Clairvaux على شعب رومة ، ويذكرهم بأن كيانهم موقوف على وجود البابوية ، وظلت حكومة رومة الذاتية عشر سنين تحكم مدينة القياصرة والبابوات .

واستجمع أوچنيوس الثالث شجاعته وعاد إلى رومة فى عام ١١٤٨ ، وقصر واجباته وقتاً ما على الواجبات الروحية ، وأخذ يهب الصدقات ، وكسب بذلك قلوب الشعب . وغضب خليفته هدريان الرابع أشد الغضب من مقتل كردينال فى شجار عام ، فأصدر قراراً بحرمان العاصمة (١١٥٥)، وخشى مجلس الشيوخ أن تقوم فى المدينة ثورة لا يستطيع الأشراف تحمل آثارها ، فألغى الجمهورية واستسلم إلى البابا . واختبأ آرنلد المطرود من حظيرة الكنسية فى كمپانيا ؛ ولما أن اقترب فردريك بربرسا من رومة طلب إليه هدريان أن يقبض على هذا الرجل المتمرد ؛ وكشف مخبأ آرنلد وقبض عليه ، وأسلمه الإمبراطور إلى صاحب شرطة البابا فى رومة ، وشنقه (١١٥٥) . ثم حرقت جثته ، وألقى برماده فى نهر التيبر « خشية أن يجمعها الناس ويكرموها بوصفها رماد شهيد » كما يقول أحد معاصريه[٦] . وعاشت آراؤه بعد موته ، وعادت إلى الظهور عند زنادقة لمپاردى الپاتريين Paterine والوالدنسيين Waldensian ، وعند الألبجنسيين فى فرنسا ، وفى مرسليوس Marsilius من أهل پدوا ، وفى زعماء حركة الإصلاح . وظل مجلس الشيوخ قائماً حتى عام ١٢١٦ حين أفلح إنوسنت الثالث فى أن

يستبدل به شيخاً أو شيخين من المناصرين لقضية البابا . وظلت سلطة البابوات الزمنية قائمة حتى عام ١٨٧٠ .

وكانت الولايات البابوية فى أوقات مختلفة تشمل أمبريا Umbria بما فيها اسپليتوا Spoleto وپروچيا ؛ وأرض التخوم المشتملة على أنكوتا الواقعة على البحر الأدرياوى ، ورومانيا Romagna ، أو الإقليم الخاضع لحكم رومة والمشتمل على مدائن رمينى Rimini ، وإمولا Imola ، وراڤنا Ravenna ، وبولونيا Bologna ، وفرارا ferrare . وظلت راڤنا فى هذا الوقت آخذة فى الانحطاط ، بينما أخذت فرارا تزداد شهرة بحكمة زعمائها من آل إست Este . وقامت فى بولونيا حياة ناشطة قوية فى ظل حكومتها الذاتية بزعامة رجالها القانونيين العظام خريجى جامعاتها . وكانت من أولى المدائن التى اختارت لها حاكماً ذا سلطان Podesta يتولى الشئون الداخلية فى حكومتها الذاتية ، ورئيساً Capitano ليشرف على شئونها الخارجية . وكانت تشترط فيمن يتولى الشئون الداخلية صفات خاصة : كان يجب أن يكون من الأشراف ، وأن يكون من غير أهل المدينة ، وأن تزيد سنه على ستة وثلاثين عاما ؛ وألا تكون له أملاك فى داخل نطاق البلدة ذات الحكم الذاتى ، وألا يكون له أقارب بين الناخبين ، وألا يكون من أقارب الحاكم السابق أو من موطنه . وكانت هذه القواعد الغريبة التى وضعت لتضمن النزاهة فى إدارة شئون المدينة هى المتبعة فى كثير من المدن الإيطالية ذات الحكم الذاتى . أما « رئيس الشعب (قبطانه) » فلم يكن يختاره مجلس المدينة ، بل يختاره حزب الشعب الذى تسيطر عليه نقابات التجار الطائفية ؛ ولم يكن يمثل الفقراء بل كان يمثل طبقة رجال الأعمال . وقد بسط سلطانه فى القرون التالية بإضعاف سلطان البودستا ، وذلك بعد أن تفوق رجال الطبقة الوسطى الرأسمالية على الأشراف فى الثروة والنفوذ .

الفصل الثالث

البندقية تنتصر : ١٠٩٦ — ١٣١١

كان إقليم فنيتو Veneto يقع إلى شمال كرارا ونهر البو ، وكان هذا الإقليم يفخر بمدائنه الهامة — البندقية ، وترفزو ، وبدوا ، وفيسنزا ، وفيرونا .

وفى هذا العصر بالذات عظمت قوة البندقية ، فأمكنها حلفها مع بيزنطية من أن تصل إلى ثغور بحر إيجه والبحر الأسود ، حتى ليقال إن بنيها الذين كانوا فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر زادوا على مائة ألف ، وإنهم كانوا يشيعون الرعب فى أحد أحياء المدينة بوقاحتهم ومشاحناتهم . ثم انقلب مانيول Manuel إمبراطور الروم فجاءة على البنادقة المقيمين فى عاصمته ، وألقى القبض على عدد كبير منهم ، وأمر بأن تصادر بضائعهم كلها (١١٧١) ، وكان أهل جنوى هم الذين حرضوه على هذا العمل غيرة منهم وحسداً . وأعلنت البندقية الحرب ، وأخذ أهلها يعملون ليلا ونهاراً لإنشاء أسطول ، فلما كان عام ١١٧١ قاد الدوج فيتالى ميشيلى الثانى Doge Vitale Michieli II عمارة بحرية مؤلفة من ١٣٠ سفينة لقتال جزيرة عوبية Euboea ليتخذها قاعدة بحرية لأعماله المقبلة ضد المضيقين . ولكن جنوده أصيبوا وهم على سواحل عوبية بمرض يقال إن سببه تسمم اليونان موارد الماء فى الجزيرة ! وهلك منهم آلاف مؤلفة بلغ من كثرتها أن السفن لم تجد بعد ذلك من يحاربون على ظهرها . وقاد الدوج عمارته عائداً إلى البندقية ، وفشا الطاعون فيها وأهلك عدداً كبيراً من أهلها ؛ ولما أن اجتمعت الجمعية وجهت اللوم إلى الدوج على هذه الكوارث ، وأصيب بطعنة قاتلة (١١٧٢)[٧] . ومن واجبنا ألا نغفل عن هذه الحوادث حين ندرس ما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ، والثورة الأرثوذكسية التى غيرت دستور البندقية .

وخشى كبار التجار أن تنهار إمبراطوريتهم التجارية إذا دامت هذه الهزائم، فعقدوا النية على أن ينتزعوا من الجمعية العمومية حق انتخاب الدوج، وأن ينشئوا مجلساً من صفوة الأهلين يكون أقدر على بحث شئون الدولة وتصريفها ، وعلى الوقوف فى وجه أهواء الشعب واستبداد الدوج ، ثم أقنعوا أكابر قضاة الجمهورية الثلاثة بأن يعينوا لجنة تضع للبلاد دستوراً جديداً . وأوصت هذه اللجنة فى تقريرها أن يختار كل حى من أحياء دولة المدينة الستة اثنين من كبار الأهلين يختار كل منهم أربعين من خيرة الرجال ، وأن يتألف من الأربعمائة والثمانين عضواً الذين يختارون على هذا النحو مجلس أعظم Maggior Conscglio يكون هو الهيئة التشريعية العامة للأمة ثم يختار المجلس الأعظم ستين عضواً من أعضائه يكونون مجلس الشيوخ الذى يشرف على الشئون التجارية والمالية والعلاقات الخارجية . وكان من هذه التوصيات ألا تجتمع الأرنجو Arrengo أى الجمعية الشعبية إلا للتصديق على اقتراحات الحرب والسلم أو رفضها ، وأن يختار رجل من كل حى من الأحياء الستة يتألف منهم جميعاً مجلس خاص يحكم الدولة إذا ما أصبح عرش الدوج شاغراً ، وكان لا بد من أن يقر هذا المجلس كل عمل حكومى يقوم به الدوج لكى يصبح هذا العمل مشروعاً . واختار أول مجلس أعظم انتخب بالطريقة السالفة الذكر أربعة وثلاثين من أعضائه ، اختاروا من بينهم أحد عشر عضواً ، عقدوا اجتماعاً علنياً فى كنيسة سان ماركو اختاروا فيه الدوج (١١٧٣) . ورفع الشعب عقيرته باحتجاج لحرمانه من حق اختيار رئيس الدولة ، ولكن الدوج الجديد وجه الاضطراب وجهة أخرى بأن نثر النقود على الجموع المحتشدة[٨]، ولما اختار المجلس الأعظم أنريكو دندولو Enrico Dandolo دوجاً فى عام ١١٩٢ طلب إليه أن يقسم فى يمين تتويجه أن يطيع جميع قوانين الدولة ، وبهذا أضحت الجركية التجارة صاحبة السلطة العليا فى البلاد .

وأثبت دندولو ، وكان وقت اختياره فى الرابعة والثمانين من عمره ، أنه من أقدر الزعماء فى تاريخ البندقية ؛ فقد استطاعت البندقية فى أيامه ، وبفضل سياسته المكيڤلية ، وبسالته الشخصية ، أن تثأر لنفسها من الكارثة التى حلت بها عام ١١٧١ ، فتستولى على القسطنطينية وتنهبها فى عام ١٢٠٤ ، وبهذا أصبحت البندقية القوة المسيطرة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، والبحر الأسود ؛ وانتقلت الزعامة التجارية فى أوربا من بيزنطية إلى إيطاليا . وساعد أهل چنوى فى عام ١٢٦١ اليونان على استعادة القسطنطينية ، وكوفئوا على عملهم هذا بأن منحوا فيها ميزات تجارية ؛ ولكن أسطول البندقية هزم أسطول چنوى بالقرب من صقلية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، وأرغم إمبراطور الروم على أن يرد إلى البندقية مركزها الممتاز فى عاصمة ملكه .

وتوجت الأرستقراطية الظافرة هذه الانتصارات الخارجية بضربة دستورية جديدة . فقد عرض الدوج پيترو جرادنجو Pietro Gradenigo فى عام ١٢٩٧ على المجلس الأعظم اقتراحاً ، حمله على الموافقة عليه ، يقضى بألا يختار لعضوية هذا المجلس إلا من كان من أعضائه منذ عام ١٢٩٣ أو كان من أبنائهم الذكور[٩] . وكان من أثر « إغلاق المجلس » فى وجه المواطنين أن حرمت الكثرة الغالبة من الشعب من الوظائف العامة ، وأن وجدت طبقة مغلقة لايستطيع الانتماء إليها إلا أبناء أعضائها . وأنشئ « كتاب ذهبى » Libro d'oro لتسجيل عقود الزواج والوفيات بين أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية ليضمن به نقاءها واحتكارها للسلطان ، وبهذا جعلت الأرستقراطية التجارية نفسها أرستقراطية المولد . ولما أن دبر الشعب ثورة على هذا الدستور الجديد ، سمح لزعمائه بأن يدخلوا قاعة المجلس ثم شنقوا من فورهم (١٣٠٠) .

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن هذه الأرستقراطية السافرة القاسية قد أحسنت الحكم ، فقد كانت فى محافظتها على الأمن والنظام ، وفى حسن توجيهها للسياسة العامة ،

وفى العمل على استقرار القانون وبسط سلطانه ؛ تفضل غيرها من المجتمعات الإيطالية فى العصور الوسطى . وسبقت القوانين التى سنتها البندقية لتنظيم أعمال الأطباء والصيادلة أمثالها فى فلورنس بنصف قرن من الزمان ؛ وحرمت القوانين فى عام ١٣٠١ قيام الصناعات المضرة بالصحة بين المساكن ، وأخرجت من البندقية جميع الصناعات التى تنفث الدخان المؤذى فى الهواء . وكانت قوانين الملاحة شديدة مفصلة ، كما كانت جميع الواردات والصادرات خاضعة لرقابة الدولة وسيطرتها ، وكانت التقارير الدبلوماسية تعنى بأحوال التجارة أكثر من عنايتها بالشئون السياسية ، وأصبحت الإحصاءات الاقتصادية للمرة الأولى جزءاً من الحكم فى هذه المدينة(١٠) .

وكادت الزراعة تكون غير معروفة فى البندقية ، أما الصناعات اليدوية فكانت متقدمة لأن هذه المدينة استوردت من مدن البحر المتوسط القديمة فنوناً وحرفاً كادت تقضى عليها الاضطرابات السياسية فى الغرب ، واشتهرت مصنوعات الحديد ، والشبه ، والزجاج ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب والحرير ، واشتهرت كلها فى القارات الثلاث ، وأكبر الظن أن بناء القوارب للتنزه ، أو الاتجار ، أو الحرب كان أعظم صناعات البندقية . وقد وصلت هذه الصناعة إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالى بالجملة ، والتمويل الجماعى ، وكادت تصل إلى المرحلة الاشتراكية لسيطرة أكبر عميل لهذه الصناعة وهو الدولة . وكانت سفائن جميلة المنظر عالية الجؤجؤ ، منقوشة الأشرعة ، فى بعضها مائة وثمانون مجذافاً تربط البندقية بالقسطنطينية ، وصور ، والإسكندرية ، ولشبونة ، ولندن ، وعشرات من المدن الأخرى بسلسلة ذهبية من المرافئ والمتاجر . وكانت بضائع من وادى النهر تصل إلى البندقية كى يعاد شحنها منها إلى الخارج ؛ وكانت بضائع مدن نهر الرين تأتيها بعد أن تجتاز جبال الألب لتنتشر من موانيها فى عالم البحر المتوسط ؛ وكان مصفق المدينة Rialto أكثر الأماكن حركة فى سائر أنحاء أوربا ،

يزدحم بالتجار ، والملاحين ورجال المصارف القادمين من مائة قطر ، ولم تكن ثروة شمالى أوربا تضارع غناء هذه المدينة التى يرتبط كل شىء فيها بعجلة التجارة والمال ، والتى كانت السفينة الواحدة من سفنها التى ترسل إلى الإسكندرية تعود منها بربح يعادل ألفاً فى المائة من المال المستثمر فى بضائعها — إذا لم تلاق عدواً ، أو قرصاناً ، أو عاصفة مدمرة[١١] . وقصارى القول أن البندقية كانت أغنى المدن الأوربية فى العصور الوسطى ، ولعلها لم يكن يضارعها فى ثرائها إلا المدائن الصينية التى وصفها ماركو پولو ابن البندقية وصفاً لا نستطيع تصديقه .

إلا أن العقيدة تضمحل كلما زادت الثروة . ولقد كان البنادقة يكثرون من استخدام الدين فى الحكم ، ويواسون من لا أصوات لهم فى إدارة الشئون العامة بالمواكب ويمنونهم بجنة النعيم ؛ غير أن الطبقات الحاكمة قلما كانت تسمح للمسيحية أو للحرمان من حظيرة الكنيسة بأن يعترض سبيل الحرب أو الأعمال المالية ، فقد كان شعارها « نحن بنادقة ، ونحن بعد ذلك مسيحيون Siamo Veneziani poi Cristiani »[١٢] . وتطبيقاً لهذا الشعار لم يكن لرجال الدين نصيب ما فى الحكم[١٣] ، وكان التجار البنادقة يبيعون السلاح والرقيق ، ويمدون المسلمين الذين يقاتلون المسيحيين بالمعلومات الحربية[١٤] . وكان شىء من التسامح يصحب هذا الحرص على الكسب المتميز بسعة الأفق ؛ فقد كان فى وسع المسلمين أن يأتوا إلى البندقية وهم آمنون ، وكان اليهود — وخاصة فى الجيودكا Giudecca جزيرة أسپنالنجا Spinalunga يقيمون شعائر دينهم فى معابدهم وهم آمنون .

وقد ندد دانتى بـ « فجور البنادقة الطليق »[١٥] ، ولكن ليس من حقنا أن نصدق ما يوجهه من نقد رجل يصب اللعنات ذات اليمين وذات الشمال . وأكثر من أقوال دانتى دلالة على أخلاق البنادقة تلك العقوبات الصارمة الواردة

فى الشرائع البندقية لتوقع على الآباء الذين يحرضون أبناءهم على الفسق ، وتلك القوانين التى تكرر وضعها بلا جدوى لمنع الارتشاء فى الانتخابات[١٦] . والصورة التى تنطبع فى أذهاننا منها هى صورة أرستقراطية صارمة ساطعة اعتادت منظر بؤس الجماهير فلم تعد تتأثر به ؛ وسوقة تخفف من حدة الفقر بمباهج الحب الطليق . ونحن نسمع منذ عام ١٠٩٤ عن مواكب « الكرنفال » وذكرت « المساخر » لأول مرة فى عام ١٢٢٨ ؛ وفى عام ١٢٩٦ جعل مجلس الشيوخ اليوم السابق للصوم الكبير عيداً شعبياً . يزدان فيه السكان — رجالا ونساء — بأغلى أثوابهم وأبهى زينتهم ، فكانت النساء ذوات الثراء يتوجن أنفسهن ، بتيجان أو قلانس أو عمائم منسوجة بخيوط الذهب ، وتتلألأ عيونهن تحت أقنعة من نسيج الذهب أو الفضة ، وفى أعناقهن عقود من اللؤلؤ ، وفى أيديهن قفازات من جلد الشموا Chamois أو نسج الحرير ، وفى أقدامهن أخفاف أو أحذية من الجلد ، أو الخشب ، أو الفلين ، حمراء اللون أو ذهبية ؛ وأثوابهن من نسيج التيل الرفيع أو الحرير العادى أو المشجر أو المطرز ، والمنثورة ، عليه الجواهر ، يكشف عن أعناقهن وما تحت أعناقهن ، فكن بذلك فتنة لأهل زمانهن وشاهداً على ما فيه من فضائح وآثام . وكن يضعن على رؤوسهن شعراً مستعاراً ، ويستعملن الأدهان الملونة والمساحيق ، ويصمن لكن تصبح أجسامهن نحيلة رشيقة[١٧] . وكن يسرن بكامل حريتهن وسط الجماهير فى أى وقت يردن ، ويشتركن فى غواية وخفر فى حفلات اللهو والتنزه فى القوارب ، ويستمعن فى سرور إلى الشعراء الغزلين الذين أدخلوا أساليب الغناء البروفنسية فى موضوعات الحب الأبدية .

ولم يكن البنادقة يميلون فى هذا الوقت إلى الثقافة . نعم إنهم كانت لهم مكتبة عامة طيبة ، ولكن يبدو أنهم قلما كانوا يفيدون منها ، ولم يسهموا بنصيب فى العلوم ، ولم يخلفوا وراءهم شعراً خالداً ظهر فى وسط هذا الثراء المنقطع النظير .

وكانت المدارس كثيرة عندهم فى القرن الثالث عشر ، ولدينا ما يدل على أنهم كانوا يعطون الطلاب الفقراء منحاً تمكنهم من مواصلة الدرس ، ولكننا نعرف أنه كان لديهم فى القرن الرابع عشر قضاة لا يعرفون القراءة(١٨) . وكانوا يقدرون الموسيقى أعظم تقدير ، أما الفن فلم يكن قد وصل إلى الدرجة العالية التى بلغها فيما بعد ؛ غير أن الثراء كان يأتى إلى البندقية بالفن من بلاد كثيرة ، وكان ذوق الأهلين آخذاً فى الارتقاء ؛ وكانت أسسه توضع فى هذه الفترة وبخاصة فن الزجاج ، وقد بقى لهم بعض ما كان للرومان الآخرين من حذق فيه .

وليس من حقنا أن نصور البندقية فى ذلك العصر بتلك الصورة الجميلة التى وجدها عليها ڤاجنر Wagner أو نتشه فى القرن التاسع عشر . فقد كانت بيوتها مقامة من الخشب ، وشوارعها من الأرض العادية ؛ وإن كان طريق سان ماركو قد رصف بالآجر فى عام ١١٧٢ ؛ وكان الحمّام موجوداً فى المدينة منذ عام ١٢٥٦ . وبدأ البنادقة يقيمون الجسور على القنوات وكان أصحاب القوارب ينقلون الناس فى القناة العظمى . أما القنوات الجانبية الصغرى فالراجح أنها كانت أقل بهجة مما هى عليه الآن ؛ ذلك أن النضوج الكامل فى كل شىء يتطلب بعض الوقت . غير أن ما فى الشوارع والقنوات من عيوب لا يمكن أن يحجب عن العين عظمة مدينة ترتفع جيلا بعد جيل من مناقع البحر الضحل وضبابه ، أو يحول بين الإنسان وبين الدهشة من شعب يدفع هامته من الخراب والعزلة ليغطى سطح البحر بسفنه ويجبى المال ويستورد الجمّال من نصف العالم .

وكانت مدينة ترڤيزو Treviso وتخومها تقع بين البندقية وجبال الألب ، ولن نقول عن هذه المدينة إلا أن أهلها كانوا يحبون الحياة حباً جماً ، ويسمونها بلد الحب ويقولون إن المدينة احتفلت فى عام ١٢١٤ بعيد

قصر الحب ، فأقيم قصر من الخشب علقت فيه الطنافس والأقمشة المزركشة ، وتيجان الزهر ، وجاءت نساء المدينة فأمسكن بالقصر وهن مسلحات بالماء المعطر ، والفاكهة ، والأزهار ، ثم أقبل الفرسان الشبان من أهل البندقية ينافسون شباب بدوا المرح الجرىء فى حصار السيدات ، ويمطرونهن وابلا مماثلا لقذائفهن ؛ ويقال إن البنادقة كسبوا المعركة بأن خلطوا الأزهار بقطع النقود الذهبية . ومهما يكن سبب هذا النصر فقد سقط الحصن وحامياته الحسان فى أيديهم[١٩] .

الفصل الرابع

من منتوا إلى چنيوى

كانت المدائن الشهيرة فى لمباردية تحكم السهول الواقعة فى غرب ڤنيتو والمحصورة بين نهر البو وجبال الألب وهى : منتوا ، وكرمونا ، وبريشيا ، وبرجامو ، وكومو ، وميلان ، وپاڤيا . وكانت فى جنوب نهر البو ، فى المقاطعة المعروفة باسم إميليا Emilia فى هذه الأيام ، مدائن مودينا ، ورجيو ، وپارما ، وپياسنزا ، ولسنا نعتقد أن من يحبون إيطاليا سيملون من تكرار هذه الأسماء على مسامعهم . وكانت ولاية بيدمونت Piedmont المحصورة بين لمباردية وفرنسا تضم فرسلى Vercelli وتورين ، وفى جنوبى هاتين البلدتين كانت تنحنى حول خليج چنوى ومدينة چنوى نفسها . وثروة هذا الإقليم هدية من نهر البو الذى يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، يحمل المتاجر ، ويملأ القنوات ويروى الحقول . وكان نشاط الصناعة والتجارة فى هذه المدن هو الذى حباها بالثروة والعزة اللتين جعلتاها تغض الطرف فى معظم الأوقات عما كان للإمبراطور الألمانى من سيادة اسمية عليها وأمكناها من أن تخضع الأشراف شبه الإقطاعيين المقيمين خلفها .

وكانت كنيسة كبرى تقوم عادة فى وسط كل بلدة من هذه البلدان الإيطالية ، لكى تخلع البهجة والسرور على الحياة بمواكب التقى وقوة الأمل . وكان إلى جانبها مكان التعميد الدال على تمتع الطفل بمزايا المواطنية المسيحية وتبعاتها ، وبرج الأجراس التى تدعو الناس إلى العبادة أو الاجتماع أو حمل السلاح . وفى الميدان العام المجاور للكنيسة الكبرى كان الفلاحون والصناع يعرضون

بضاعتهم ، والممثلون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والشعراء الجائلون يمثلون أدوارهم ، والمنادون يعلنون ما يريدون ، والمواطنين يثرثرون بعد قداس آيام الآحاد ، والشبان أو الفرسان يتبارون فى الألعاب الرياضية أو البرجاس . وكانت قاعة عامة للمدينة ، وبضعة حوانيت وبيوت ومساكن مشتركة يتكون منها سياج من الآجر حول الميدان . ومن هذا المكان الوسط تمتد الشوارع المتعرجة الملتوية التى يبلغ من ضيقها أنه إذا سار فيها راكب فرس أو مرت بها عربة اضطر الراجلون إلى الانزواء فى مدخل بيت أو الالتصاق بجدار . ولما تقدم القرن الثالث عشر وازدادت ثروة الأهلين استخدمت قطع القرميد فى تسقيف البيوت المطلية جدرانها بالمصيص فراق منظرها فى أعين من يستطيعون نسيان الوحل والروائح الكريهة . وكان الميدان والشوارع الكبرى دون غيرها هى المرصوفة ، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج وشرفات لأن الحروب كانت كثيرة فى تلك الأيام ، وكان من واجب الإنسان أن يعرف كيف يقاتل إذا لم يشأ أن يكون راهباً .

وكانت ميلان وجنوى أكبر هذه المدن كلها . وكانت جنوى — الفخمة كما كان يسميها أحباؤها — ذات موقع ممتاز للعمل والمتعة . فقد كانت تقوم على تل مواجه للبحر الذى يغرى بالاتجار ، وتستمتع بجو الرفيرا الدافئ الذى يمتد إلى رابلو Rapallo فى الشرق وسان ريمو San Remo فى الغرب . وكانت جنوى منذ أيام الرومان ثغرا نشيط الحركة ، ولهذا كان سكانها تجاراً ، وصناعاً ، ورجال مصارف ، وصناع سفن ، وبحارة ، وجنوداً ، وساسة . ونقل مهندسو جنوى الماء النقى إليها من الألب الليجورية Ligurian Alps فى قناة مسقفة لاتقل عن قنوات رومة القديمة ، وأقاموا حاجزاً ضخماً فى الخليج المسمى باسمها ليجعلوا مرفأها العظيم آمناً فى أثناء العواصف والحروب . وقلما كان أهل جنوى يعنون بالآداب أو الفنون فى تلك الأيام ؛ شأنهم فى هذا شأن البنادقة المعاصرين لهم ؛ فقد كانوا يصرفون جهودهم كلها فى التغلب على منافسيهم وارتياد سبل جديدة

للكسب . وكاد مصرف جنوى يكون هو الدولة ، فقد كان يقرض المدينة المال بشرط أن يحصل هو إيراداتها ، وكان يفضل سلطانه هذا يسيطر على الحكومة ، وكان كل حزب يتولى السلطة يتعهد بأن يكون وفياً مخلصاً للمصرف ؛ ولكن أهل جنوى كان لهم من الشجاعة بقدر ما لهم من حب الكسب ، فقد تعاونوا مع أهل بيزا على إخراج المسلمين من غربى البحر المتوسط (١٠١٥ — ١١١٣) ، ثم حاربوا بيزا حروبا منقطعة حتى قضوا على القوة المنافسة لهم فى واقعة ملوريا Meloria البحرية (١٢٨٤) . وجندت بيزا فى هذه الحرب الأخيرة كل من كان فيها من الرجال بين العشرين والستين من العمر ، كما جندت جنوى كل من كان فيها بين الثامنة عشرة والسبعين . وتلك حقيقة فى وسعنا أن نعرف منها روح ذلك العصر وحالته النفسية . وكتب الراهب سلمبينى Salimbene فى ذلك يقول « بين أهل بيزا وأهل جنوى ، وكذلك بين أهل بيزا وأهل لوكا Lucca ، من الحقد والاشمئزاز الطبيعى بقدر ما بين الآدميين والأفاعى[٢١] » . وظل الرجال يقتتلون يدا بيد فى هذه الواقعة الأخيرة التى حدثت فى البحر قرب ساحل قورسقة حتى هلك نصف المحاربين « وارتفعت فى جنوى وبيزا أصوات الحزن والعويل كما لم ترتفع فى هاتين المدينتين من يوم أنشئنا إلى أيامنا هذه »[٢٢] . ولما علم أهل لوكا وفلورنس الأخيار بالكارثة التى حلت ببيزا وفلورنس ظنوا أنهم قد لاحت لهم أحسن فرصة لإرسال حملة لقتال تلك المدينة البائسة ، ولكن البابا مارتن الرابع أمرهم أن يكفوا عن القتال ، واندفع أهل جنوى فى هذه الأثناء نحو الشرق وتضاربت مصالحهم مع مصالح البنادقة ، فنشأت بينهم أشد الأحقاد ، وتنازع أهل المدينتين فى عام ١٢٥٥ على امتلاك عكا ، والحاز فرسان المستشفى فى المعركة إلى جانب أهل جنوى ، كما انضم فرسان المعبد إلى البنادقة ؛ وسقط فى هذه المعركة وحدها عشرون ألف رجل[٢٣] ، وكانت سبباً فى تحطيم وحدة المسيحيين فى بلاد الشام ، ولعلها هى التى قررت

إخفاق الحروب الصليبية . وظل النزاع قائماً بين جنوى والبندقية حتى عام ١٣٧٩ ، حين منيت جنوى بهزيمة ساحقة لا تقل فى ذلك عما لحق بپيزا على يديها قبل ذلك بمائة عام .

وكانت ميلان أغنى مدائن لمبارديه وأقواها ؛ وكانت من قبل إحدى العواصم الرومانية ، ولهذا كانت تفخر بقدم عهدها وتقاليدها . ذلك أن قناصل جمهوريتها قد تحدوا الأباطرة ، وأساقفتها تحدوا البابوات ، وآوى أهلُها الملحدين الذين تحدوا المسيحية نفسها أو اشتركوا معهم فى إلحادهم . وكان فيها فى القرن الثالث عشر مائة ألف من الأهلين ، وثلاثة عشر ألف بيت وألف حانة[٢٤] . وكانت هى مولعة بالحرية حريصة عليها ، فلم تتخل عنها راضية إلى غيرها ، وكان جنودها يطوفون بالطرق ليرغموا القوافل ، أيا كانت وجهتها ، على أن تعرج على ميلان أولا . وقد دمرت كومو ولودى Lodi ، وحاولت أن تخضع پيزا ، وكرمونا ، وپافيا ، ولم تركن إلى السكون حتى سيطرت على جميع تجارة نهر الپو[٢٥] . ووقف رجلان من أهل لودى أمام مجمع كنستانس عام ١١٥٤ وتوسلوا إلى فردريك بربرسا أن يحمى مدينتهم ؛ وبعث الإمبراطور إلى ميلان يحذرها من مواصلة العدوان على لودى ؛ فرفضت المدينة رسالته فى سخرية ووطئتها بالأقدام . واغتنم فردريك هذه الفرصة ليحقق رغبته التى طالما تاقت نفسه إليها وهى تدمير ميلان (١١٦٢) ، ولم تمض خمس سنين على هذا التدمير حتى أعاد الباقون من أهلها هم وأصدقاؤهم بناء المدينة ، وابتهجت لمبارديه جميعها ببعثها ، ورأت فيه رمزاً لتصميم إيطاليا على ألا يحكمها قط ملك ألمانى . وخضع فردريك ، ولكنه قبل أن يموت زوج ابنه هنرى السادس من كنستانس ابنة روجر الثانى ملك صقلية ؛ ووجدت العصبة اللمبارديه فى ابن هنرى رجلا أشد رهبة من فردريك .

الفصل الخامس

فردريك الثانى ١١٩٤ - ١٢٥٠

١ - الصليبي المحروم

كانت كنستانس فى سن الثلاثين حين تزوجت هنرى ، وكانت فى الثانية والأربعين حين ولدت ابنها الوحيد . وخشيت أن يرتاب الناس فى حملها وفى شرعية طفلها فأمرت بأن تنصب خيمة فى السوق العامة أيزى Iesi (القريبة من أنكونا) ؛ وفيها وعلى مرأى من الحاضرين جميعاً ولدت الغلام الذى أصبح فيما بعد أكثر الناس فتنة فى القرن الأخير من العصور الوسطى . وكان يجرى فى عروق الوليد دم ملوك النورمان الإيطاليين ممتزجا بدماء أباطرة هوهنستاوفن الألمان .

وكان فى الرابعة من عمره حين توج فى پالرم ملكا على صقلية (١١٩٨) ؛ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه . وأوصت قبل موتها أن يكون البابا وصيا على ابنها ، وأن يتولى تعليمه وحمايته السياسية ، وعرضت عليه فى نظير ذلك راتباً مجزيا ، وأن ينوب عنه فى الحكم ، وأن تعاد له السيادة على صقلية . وقبل البابا هذا العرض مسروراً ، واستخدم مركزه فى إنهاء ذلك الاتحاد بين صقلية وألمانيا الذى أقامه والد فردريك ؛ ذلك أن البابوات كانوا يحشون بحق قيام دولة كبرى تحيط بولايات البابا من جميع الجهات ، وتكون فى الواقع سجنا للبابوية وصاحبة السلطان عليها . وأعد إنوسنت العدة لتعليم فردريك ، ولكنه أبد أنو الرابع فى أن يتولى عرش ألمانيا . وشب فردريك محوطا بالإهمال وبالفقر فى بعض الأحيان ، حتى كان ذوو القلوب

الرحيمة من أهل پالرم يأتون الطعام لهذا الغلام الملكى البائس[٢٦] . وكان يسمح له بأن يجرى فى شوارع العاصمة المتعددة الأجناس واللغات وفى أسواقها كما يشاء ، وأن يختار أصدقاءه كما يشتهى . ولم يتلق الغلام تعليما منتظما ، ولكن عقله المتعطش للمعرفة كان يتعلم من كل ما يرى ويسمع ، حتى لقد دهش العالم فيما بعد من اتساع معلوماته ودقتها . فقد تعلم فى تلك الأيام وبالطريقة السالفة الذكر اللغتين العربية واليونانية ، وبعض معارف اليهود ، وعرف فى أيام شبابه خلقا من شعوب مختلفة ، ذوى ملابس ، وعادات ، وعقائد متباينة ، ولم يتخل قط عن عادة التسامح التى ألفها فى صغر سنه . وقرأ كثيراً من كتب التاريخ ، وأصبح كاتبا بليغا ومثاقفا ماهراً ، ومغرما بالخيل والصيد . وكان قصير القامة ، قوى البنية ، « ذا وجه جميل جذاب »[٢٧] ، وشعر متلو أحمر طويل ، نشيطا ، فخوراً ، سريع البت فى الأمور . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصل الرجل الذى انتدبه البابا لينوب عنه فى الوصاية عليه وتولى زمام الأمور بنفسه . وبلغ الحلم فى الرابعة عشرة وتزوج فى الخامسة عشرة من كنستانس الأرغونية Constance of Aragon ، وشرع يعمل ليسترد عرش الإمبراطورية .

وواتاه الحظ فنال بغيته ، ولكن ذلك لم يكن من غير ثمن . وتفصيل ذلك أن أتو الرابع نقض العهد الذى قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا فى الولايات البابوية ، فحرمه البابا من الكنيسة ، وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فردريك الشاب الذى تحت وصايته « لأن له حكمة الشيوخ وإن كان لا يزال فى سن الشباب »[٢٨] . ولكن إنوسنت ، وقد مال فجأة إلى فردريك ، لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها . ولهذا طلب إلى فردريك نظير تأييده إياه (١٢١٢) أن يتعهد له أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية ، وأن يحمى الولايات البابوية من كل عدوان ؛ وأن تظل « الصقليتان » — وهما إيطاليا الجنوبية النورمانية والجزيرة — منفصلتين

انفصالا دائماً عن الإمبراطورية ؛ وأن يقيم فى ألمانيا بوصفة إمبراطوراً عليها ، ويترك الصقليتين لابنه الطفل هنرى ليكون مكاً على صقلية ، وأن ينوب عنه فى حكمها نائب يعينه إنوسنت ؛ وتعهد فردريك فضلا عن هذا كله أن يحافظ على جميع حقوق رجال الدين وسلطانهم فى دولته ، وأن يعاقب المارقين ، وأن يحمل الصليب ويخرج إلى الحرب الصليبية . ودخل فردريك ألمانيا بعد أن أمده البابا بالمال اللازم لرحلته ورحلة حاشيته . وكانت لا تزال تحت سلطان جيوش أتو . لكن هذه الجيوش منيت بالهزيمة فى بوڤين على يدى فليب أغسطس ؛ فانهارت مقاومة أتو ، وتوج فردريك إمبراطوراً باحتفال فخم مهيب فى آخن (١٢١٥) . وفيها جدد الوعد الذى قطعه على نفسه من قبل بأن يشن حرباً صليبية . وتأثر كثير من الأمراء بحماسة النصر الذى ناله الشاب فأقسموا يميناً مثل يمينه . وخيل إلى ألمانيا حيناً من الدهر أنه داود ثان بعثه الله لينقذ أورشليم بلد داود من ورثة صلاح الدين .

لكن الأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة ، فقد حشد هنرى أخو أتو جيشاً ليخلع به فردريك ، ووافق هونوريوس الثالث Honorius III البابا الجديد على أن يدافع الإمبراطور الشاب عن عرشه . وانتصر فردريك على هنرى ، ولكنه تورط وقتئذ فى الشئون السياسية للإمبراطورية ، ويلوح أنه كان يحن إلى موطنه الأول فى إيطاليا ، فقد كان دم الجنوب وحرارة الجنوب ممتزجين بطبعه ، وكانت ألمانيا تضايقه ، فلم يقض فيها من سنيه الست والخمسين إلا ثمانية أعوام لا أكثر . وقد أعطى البارونات سلطات إقطاعية واسعة ، ومنح عدداً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وعهد بحكم ألمانيا إلى إنجلبرت كبير أساقفة كولونى ، وهرمان السالزى Herman of Salza الرجل الحازم القدير كبير الفرسان التيوتون . وتمتعت ألمانيا بالسلم والرخاء فى السنين الخمس والثلاثين التى تولى فيها العرش على الرغم من إهماله الظاهرى لشئونها . وبلغ من رضاء البارونات

والأساقفة عن سيدهم الغائب أن توّجوا مرضاة له ابنه هنرى البالغ من العمر سبع سنين « ملكاً على الرومان » — أى وارثاً لعرش الإمبراطورية (١٢٢٠) . وعين فردريك نفسه فى الوقت عينه نائباً فى صقلية عن هنرى الذى بقى وقتئذ فى ألمانيا . وبدّل هذا العمل خطط إنوسنت تبديلا تاماً ، ولكن إنوسنت كان قد فارق هذا العالم . وخضع هونوريوس للأمر الواقع ، ولم يكتف بالخضوع له بل توّج فردريك إمبراطوراً فى رومة ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يرحل فردريك من فوره لإنقاذ الصليبيين فى مصر . لكن بارونات إيطاليا الجنوبية ومسامى صقلية خرجوا عليه وقتئذ ، وقال فردريك إنه لا بد له أن يعيد النظام فى مملكته الإيطالية قبل أن يخاطر بالغياب عنها زمناً طويلا . يضاف إلى هذا أن زوجته ماتت فى ذلك الوقت (١٢٢٢) . وأراد هونوريوس أن يغريه بأن يبرّ بقسمه فأقنعه بأن يتزوج إزابلا Isabella ، وارثة عرش أورشليم الضائعة ، ووافق فردريك على هذا الزواج وأضاف لقب « ملك أورشليم » إلى لقبيه الآخرين وهما ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ثم أخرت سفره مرة أخرى متاعب قامت فى المدن اللمباردية . ومات هونوريوس فى عام ١٢٢٧ واعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة . وأخذ فردريك وقتئذ يعد العده فى جد ، فأنشأ أسطولا عظيما ، وحشد أربعين ألفاً من المحاربين الصليبيين فى برنديزى ، لكن وباء مروعاً فشا فى جيشه ، مات منه آلاف ، وفرّت منه آلاف أكثر منها . وأصيب بهذا الوباء الإمبراطور نفسه ، وكبير قوّاده لويس الثورنچيائى Louis of Thuringia . ومع هذا فقد أصدر فردريك أمره بالرحيل ، ومات لويس ، وساءت حال فردريك ، وأشار عليه أطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بأن يعود إلى إيطاليا ، فعمل بمشورتهم ، وطلب العلاج من مرضه فى پزيولى Pozzuoli . ونفد صبر البابا جريجورى ؛ فلم يستمع إلى أقوال رسل فردريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور .

وبعد سبعة أشهر من ذلك الوقت أبحر فردريك إلى فلسطين (١٢٢٨) وهو لا يزال مطرودا من حظيرة الدين . فلما سمع جريجورى بوصوله بلاد الشام أحل رعايا فردريك وابنه هنرى من يمينى الولاء لهما ، وأخذ يعمل لخلع الإمبراطور . وعد نائب فردريك فى إيطاليا هذه الأعمال إعلانا للحرب من جانب البابا ، فهاجم الولايات البابوية . ورد جريجورى على هذا العمل بأن أرسل جيشاً لغزو صقلية ، وأشاع الرهبان أن فردريك قد مات ؛ وما لبث جزء كبير من صقلية وإيطاليا الجنوبية أن سقط فى يدى البابا . ووصل مندوبان عن البابا من رهبان الفرنسسكان مدينة عكا بعد أن وصلها فردريك بزمن قليل ، وحرما على كل رجل فى صفوف المسيحيين أن يطيع أمر الرجل الطريد . ودهش الكامل قائد جيوش المسلمين إذ وجد حاكما أوربيا يعرف اللغة العربية ، ويقدر الآداب والعلوم والفلسفة العربية أعظم التقدير ، فعقد صلحا مواتيا مع فردريك ، دخل على أثره الإمبراطور بيت المقدس فاتحا دون أن يريق فى هذا الفتح قطرة دماء . ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتتويجه ملكا على بيت المقدس فما كان منه إلا أن توج نفسه كنيسه الضريح المقدس . وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فردريك فى الضريح والمدينة قد دنسهما ، فحرما إقامة الخدمات الدينية فى بيت المقدس وعكا . وترامى إلى بعض فرسان المعبد أن فردريك يعتزم زيارة المكان الذى يقال إن المسيح قد عمد فيه فى نهر الأردن ؛ فبعث برسالة سرية إلى الكامل يقول فيها إن الفرصة قد واتته لأسر فردريك . فما كان من القائد المسلم إلا أن بعث بالرسالة إلى فردريك . وأراد الإمبراطور أن ترفع اللعنة عن بيت المقدس فغادرها فى اليوم الثالث بعد التتويج وسافر إلى عكا ، وفيها أخذ عامة المسيحيين يلقون عليه الأقذار وهو خارج منها إلى سفينته[٢٩] .

ولما وصل فردريك برنديزى جيش فيها من فوره جيشا جديداً . وزحف

به ليسترد المدن التى استسلمت للبابا . وفرجيش البابا أمامه وفتحت له المدن أبوابها ، ولم يقاوم منها إلا سورا Sora فضرب عليها الحصار حتى استولى عليها عنوة وأشعل فيها النار فدمرتها تدميرا . ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية ، وأرسل إلى البابا يدعوه إلى الصلح ، فأجاب البابا دعوته ووقعا معاهدة سان جرمانو San Germano (١٢٣٠) ، وألغى قرار الحرمان ورفرف لواء السلم إلى حين .

٢ — أعجوبة العالم

ثم وجه فردريك عنايته للشئون الإدارية ، فأخذ يعالج من مقره فى فجيا Foggia من أعمال أبوليا Apulia مشاكل دولته التى اتسعت فوق ما ينبغى أن تتسع . وزار ألمانيا فى عام ١٢٣١ وأيد فى « قانون لمصلحة الأمراء » ما كان هو وولده قد منحه من سلطان البارونات ؛ وذلك بأنه كان يرضى أن يسلم ألمانيا للإقطاع إذا كان تسليمه يتيح له السلم التى تمكنه من أن ينفذ ما يريده لإيطاليا ، ولعله أدرك أن معركة بوڤين قد أنهت زعامة ألمانيا لأوربا ، وأن القرن الثالث عشر هو عصر فرنسا وإيطاليا ؛ وقد جوزى على إهماله شئون ألمانيا بتمرد ابنه وانتحاره .

واستطاع أن يؤلف بين عواطف الصقليين المتعددة وينشئ منها صرحا من النظام والرخاء يعيد إلى الأذهان مجدها فى أيام روجر الثانى . فقد ألقى القبض على المسلمين الثائرين المعتصمين بالجبال ، ونقلهم إلى إيطاليا ، ودربهم ليجعل منهم جنوداً مرتزقة ، فأصبحوا خير من يعتمد عليهم فى جيش فردريك . وفى وسعنا أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده . وظلت پالرم حتى ذلك الوقت عاصمة الصقليتين من الوجهة القانونية ، ولكن فجيا كانت هى العاصمة الحقيقية . وكان فردريك يحب إيطاليا حبا لا يعادله حب معظم الإيطاليين ، وكان يعجب كيف يقدر سهوة فلسطين هذا التقدير العظيم وإيطاليا على ظهر الأرض ؛ وكان يسمى إيطاليا الجنوبية « قرة عينه وملجأ وسط السيول »

وجنة وسط برية من الأشواك »[٣٠] ، وشرع فى عام ١٢٢٣ يشيد فى فجيا القصر الحصين الهائل الذى لم يبق منه اليوم إلا مدخله ؛ وسرعان ما قامت حول بيته مدينة من القصور يسكنها أعوانه ، ودعا أشراف مملكته الإيطالية ليكونوا وصفاء فى بلاطه ، وما زالوا يرقون فى خدمته حتى كان منهم عماله الذين تولوا شئون الحكومة الإدارية . وكان على رأس هؤلاء جميعاً پيرو دلى ڤجنى Piero delle Vigne خريج مدرسة الحقوق فى بولونيا . وقد عينه فردريك أميناً على بيت المال وأحبه كحبه ابنه أو أخاه ، وحل رجال القانون محل رجال الدين فى دولاب الحكم فى باريس بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ؛ فهنا فى أقرب الدول إلى كرسى القديس بطرس انتقل الحكم انتقالا تاما من أيدى رجال الدين إلى أيدى رجال الدنيا .

وإذ كان فردريك قد نشأ فى عصر الفوضى ، وتشبع بالآراء الشرقية ، فإنه لم يخطر بباله قط أن النظام المعروف باسم الدولة يستطاع المحافظة عليه بغير سلطان الملوك . ويبدو أنه كان يعتقد مخلصاً أنه إذا انعدمت السلطة المركزية القوية أهلك الناس أنفسهم ، أو افتقروا المرة بعد المرة بسبب الإجرام والجهل ، والحرب ؛ وكان مثل بربرسا يرى أن نظام المجتمع أعظم قيمة من حرية الشعب ، ويحس أن الحاكم الحازم الذى يستطيع المحافظة على النظام يستمتع بكل ما فى ملكه من نعيم . وكان يسمح للشعب بقدر من التمثيل فى حكومته : فقد أنشأ جمعيات تنعقد مرتين كل عام فى خمسة مواضع من مملكته ، لتعالج المشاكل ، والشكاوى والجرائم المحلية . ولم يدع إلى هذه الجمعيات أشراف الإقليم ومطارنته فحسب ، بل كان يدعو إليها بالإضافة إليهم أربعة مندوبين عن كل مدينة كبيرة ، ومندوبين اثنين عن كل بلدة . أما فيما عدا هذا فقد كان فردريك ملكا مطلق السلطان ، يرى أن القاعدة الأساسية التى يقوم عليها القانون الرومانى — وهى أن الأهلين قد عهدوا إلى الإمبراطور دون غيره الحق المطلق فى التشريع —

يرى أن هذه القاعدة من البدائه التى لا تقبل الجدل . وأصدر للدولة من ملفى Melfi عام ١٢٣١ الكتاب الأعظم وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد جستنيان ، وأتم كتاب فى فقه التشريع فى تاريخ القانون كله . ويرجع أكبر الفضل فى صدوره إلى مهارة پيرودلى ڤجنى وحسن مشورته . وكان هذا القانون رجعياً من بعض الوجوه ؛ فقد أقر ما فى النظام الإقطاعى من فروق بين الطبقات . وأيد ما كان للسيد الإقطاعى من حقوق قديمة على أرقاء أرضه ، لكنه كان فى كثير من النواحى قانونا تقدمياً : فقد حرم الأشراف من سلطاتهم التشريعية والقضائية ، وحقهم فى سك العملة ، وركز هذه الحقوق كلها فى الدولة ؛ وألغى نظام التقاضى بالقتال أو التحكيم الإلهى ، وأنشأ نظام المدعين العموميين المعينين من قبل الدولة لتعقب الجرائم التى ظلت حتى ذلك الوقت تفلت من العقاب إذا لم يتقدم مواطن ما بعرضها على القضاء . وندد الكتاب بالتباطؤ فى إصدار الأحكام ، ونصح القضاة بتقصير خطب المحامين ، وحتم على محاكم الدولة أن تعقد جلساتها فى كل يوم ما عدا أيام العطلة الرسمية .

وعنى فردريك كما عنى معظم الحكام فى العصور الوسطى بتنظيم شئون الاقتصاد القومى ، فحدد « ثمناً عادلا » لعدد من مختلف الخدمات والسلع . وأممت الدولة إنتاج الملح ، والحديد ، والصلب ، والقنب ، والقار ، والمنسوجات المصبوغة ، والأقمشة الحريرية[٣١] ؛ وأقامت الدولة مصانع للنسيج تعمل فيها إماء مسلمات على أعين رؤساء من الخصيان[٣٢] ؛ وكانت تمتلك وتدير مذابح الحيوانات والحمامات العامة ؛ وأنشأت مزارع نموذجية ، وشجعت زراعة القطن وقصب السكر ، وطهوت الغابات والحقول من الحيوانات الضارة ، وشقت الطرق وأقامت القناطر ، وحفرت الآبار لتزيد موارد المياه[٣٣] . وكان الجزء الأكبر من التجارة الخارجية فى يد الدولة تنقله سفن تمتلكها الحكومة ، كان فى واحدة منها ثلثمائة من الملاحين[٣٤] . وخفضت المكوس المفروضة على التجارة الداخلية إلى الحد

الأدنى ، ولكن العوائد المفروضة على الصادرات والواردات كانت أكبر مورد من موارد الدولة . وكان ثمة ضرائب أخرى كثيرة ، لأن هذه الحكومة كانت تستطيع أن تجد على الدوام ، كما تجد سائر الحكومات ، منافع للمال . ومن بين الأعمال التى تعلى من قدر فردريك أنه وضع نظاماً سليماً للنقد روعيت فيه واجبات الشرف والأمانة .

وكان فردريك وحده سيد هذه الدولة والمدبر لجميع شئونها ، وأراد أن يجعلها ذات جلال وقداسة دون أن يعتمد على المسيحية التى كانت فى العادة مغاضبة له ، فبذل غاية فى جهده فى أن يخلع على نفسه كل ما كان يحيط بالإمبراطور الرومانى من رهبة وجلال . فلم يطبع على نقوده الجميلة الشكل شعاراً أو لفظاً مسيحياً ، بل طبع حول أحد وجهيها تلك الأقصوصة Aug Cesar Rom Imp (الإمبراطور الرومانى قيصر أغسطس) وطبع على الوجه الآخر النسر الرومانى يحيط به اسم Fredericus (فردريكوس) . ولقن الناس أن الإمبراطور كان بمعنى ما ابن الله ، وأن شرائعه هى العدالة الإلهية مقننة ، وكانوا يشيرون إليه بلفظ Iustitia وهى كلمة تكاد تكون صيغة الغائب الثالوث جديد . وكان فردريك يحرص على أن يوضع إلى جانب أباطرة الرومان فى التاريخ ومعارض الفن ، فأمر المثالين بأن ينحتوا له تماثيل من الحجارة ، وزينت رأس قنطرة فى ڤلتورنو Volturno ، وفتحة باب فى كپوا ، بنقوش من الطراز القديم تمثله هو وأعوانه ؛ ولم يبق من هذا كله إلا رأس أنثى ذو جمال بارع[٣٥] . لكن هذه المحاولة التى بذلت قبل عصر النهضة لإحياء الفن القديم أخفقت لأن تيار الفن القوطى قد اكتسحها أمامه .

واستطاع فردريك ، رغم اقترابه من الألوهية ، وجده المتواصل فى شئون الملك أن يستمتع بالحياة بمختلف نواحيها فى بلاطه بمجيا . فقد كان لديه جيش من الأرقاء ، كثرتهم من المسلمين ، يقومون على خدمته ، ويشرفون على

دولاب حكومته وموظفيه . ولما توفيت زوجته الثانية تزوج بإزبلا الإنجليزية عام ١٢٣٥ ؛ ولكن إزبلا الإنجليزية لم يكن فى مقدورها أن تفهم عقليته أو أخلاقه ؛ فآثرت الانزواء وتركت فردريك يستمتع بعشيقاته حتى ولد له ابن غير شرعى . وكان أعداؤه يتهمونه بأنه أنشأ لنفسه « حريماً » ، كما اتهمه جريجورى التاسع باللواط[٣٦] ؛ ورد فردريك على ذلك بقوله إنه يحتفظ بجميع أولئك النساء البيض والسود ، والغلمان لبراعتهم فى الغناء ، والرقص ، والألعاب البهلوانية ، أو غيرها من ضروب التسلية المعتادة فى بلاط الملوك . وكان يحتفظ فضلا عن هذا كله بحديقة للحيوان البرى ، وكان يسافر أحياناً وفى صحبته عدد من الفهود ، والوشق ، والآساد ، والنمورة الرقطاء ، والقردة ، والدببة ، مسلوكة فى السلاسل يقودها عبيد من المسلمين . وكان فردريك مولعاً باقتناص الحيوان وصيد الحيوان بالصقورة ، وجمع الطيور الغريبة ، وقد كتب لابنه مانفرد Manfred رسالة علمية فى الصيد بالبزاة جديرة بالإعجاب .

وكان أعظم ما يستمتع به بعد الصيد هو الحديث الظريف المهذب — delico parlare ، فكان يفضل التقاء العقول الحصيفة على المبارزة بالسلاح ، وكان هو نفسه أعظم المحدثين ثقافة فى أيامه ، وقد اشتهر بفكاهته وسرعة بديهته ، وكان هو فلتر نفسه[٣٧] . وكان يتحدث بتسع لغات ويكتب سبعاً منها ، ويراسل الكامل باللغة العربية ، ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده ، ويكتب باللغة اليونانية إلى جون ڤاتتزس John Vatatzes زوج ابنته وإمبراطور الروم ؛ وباللغة اللاتينية إلى العالم الغربى . وكان رفاقه — وبخاصة پيرودلى ڤجنى — يصوغون أسلوبهم اللاتينى البليغ على نمط الكتب الرومانية القديمة ؛ لأنهم كانوا يحسون بروح الكتاب الرومان الأقدمين تسرى فى نفوسهم ويعملون على محاكاة هؤلاء الكتاب ، وكادوا يكونون هم الرواد السباقين لكتاب عصر النهضة ذوى النزعة الإنسانية . وكان فردريك نفسه شاعراً ، أثنى دانتى

على شعره اللاتينى ، وقد أدخل غزل بروڤانس والشعراء المسلمين الغزليين فى بلاطه ، وتعلق به ، وقلده النبلاء الشبان الذين كانوا فى خدمة المليك . وكان الإمبراطور نفسه يحب أن يستريح من العناء بعد أن يقضى يوماً فى تصريف شئون الملك أو الصيد أو الحرب ومن حوله النساء الحسان والشعراء يتغنون بأمجاده ومفاتن نسائه ، كما كان يفعل بعض الأمراء فى بغداد .

وكان فردريك كلما تقدمت به السن يوجه قسطاً متزايداً من اهتمامه إلى العلوم والفلسفة . وكان أكبر ما يبعث فيه هذه الرغبة العلمية هو التراث الذى خلفه المسلمون فى صقلية . وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة ، واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين واليهود ، وأجاز العلماء على ترجمة المراجع الهامة اليونانية والإسلامية إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر بأن يبعث له بأحد الرياضيين الذائعى الصيت ، كما كان على صلة ودية وثيقة بليوناردو فيبوناتشى Leonards Fibonacci أعظم علماء الرياضة المسيحيين فى أيامه . لكنه كان يشارك أهل زمانه فى بعض خرافاتهم ، واشتغل بالتنجيم والكيمياء الكاذبة ، وأغرى ميخائيل اسكت Michael Scot الذى كان واسع المعرفة فى علوم مختلفة بأن يجىء إلى بلاطه ، وأخذ يدرس معه بعض العلوم الخفية بالإضافة إلى الكيمياء ، والتعدين ، والفلسفة . وكان شغوفاً بالإطلاع فى جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين فى بلاطه وإلى غيرهم فى البلاد النائية كمصر ، وبلاد العرب ، والشام والعراق . وكانت لديه حديقة للحيوان يتخذها للدرس لا للهو ، ونظم تجارب علمية فى تربية الدجاج ، والحمام ، والخيل ، والجمال ، والكلاب ، ووضع قوانين لتحريم الصيد فى مواسم معينة قائمة على أساس سجلات دقيقة خاصة بمواسم التزاوج والتوالد عند الحيوان حتى قيل إن حيوانات أپوليا كتبت إليه تشكره على حسن صنيعه . وقد تضمنت شرائعه تنظيما مستنيراً لمهنة الطب ، والجراحات

الطبية وبيع العقاقير . ولم يكن يرى حرجاً فى تشريح جثث الموتى ، وكان الأطباء المسلمون يعجبون من سعة علمه بالتشريح . أما الفلسفة فحسبنا دليلا على واسع علمه بها أنه طلب إلى بعض علماء المسلمين أن يفسروا ما بين آراء أرسطو والإسكندر الأفروديسى من تناقض فى خلود العالم . ولقد حياه ميخائيل اسكت بقوله : « أيها العاهل المحظوظ ، إنى لقوى الاعتقاد بأنه لو كان فى مقدور رجل ما أن يفر من الموت بعلمه لكنت أنت ذلك الرجل »[٣٨] .

وكان فردريك يخشى أن تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، فأنشأ فى عام ١٢٢٤ جامعة ناپلى — وهى أنموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة إلى موافقة السلطات الدينية على إنشائها . وقد استدعى إليها علماء متبحرين فى جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ، ورتّب إعانات مالية ليمكن النابهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرّم على شباب مملكته أن يخرجوا منها فى طلب التعليم العالى ؛ وكان يأمل أن تنافس ناپلى بعد وقت قصير مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرّب الناس على أعمال الإدارة العامة .

وبعد فهل كان فردريك ممن ينكرون وجود الله ؟ لقد كان فى شبابه من الأتقياء الصالحين ، ولعله ظل مستمسكا بالعقائد الأساسية فى الديانة المسيحية إلى أيام حربه الصليبية . ثم يبدو أن اتصاله الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية . وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدراً من أفكار المسيحيين ومعارفهم أيامه . ومما يدل على ذلك أنه لما عقد مجمع الأمراء الألمان فى فريولى Friuli (١٢٣٢) استقبل وفداً من المسلمين أحسن استقبال ، ثم اشترك على مرأى من الأساقفة والأمراء مع هؤلاء المسلمين فى وليمة أقيمت للاحتفال بأحد الأعياد الدينية الإسلامية[٣٩] . ويقول عنه ماثيوپاريس Matthew Paris : « ويقول أعداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد

ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى . . . وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين »[٤٠] . وشاعت عنه شائعة صدقها جريجورى التاسع تتهمه بأن قال إن « ثلاثة من المشعوذين ساقوا بدهائهم أهل زمانهم ليسودوا بهم العالم — موسى ، وعيسى ، ومحمداً ! » . ودوى هذا السباب والكفران فى جميع أنحاء أوربا ، وأنكر فردريك التهمة ، ولكنها ساعدت على نفور الرأى العام منه فى آخر أزمات حياته . وما من شك فى أنه كان حر الفكر إلى حد ما ، فقد كانت لديه شكوكه فى العقيدة القائلة بأن العالم خلق دفعة واحدة فى زمن معين ، وفى خلود الفرد ، وفى ولادة العذراء ، وفى أمثالها من العقائد الواردة فى الدين المسيحى[٤٢] . وقال حين رفض مبدأ التحكيم الإلهى : « منذا الذى يصدق أن الحرارة الطبيعية الكامنة فى فى الحديد المتوهج تبرد من غير سبب كاف ، أو أن عنصر الماء يرفض قبول (عمر) المتهم لأنه ميت الضمير »[٤٣] . ولم ينشئ فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة .

وقد منح جميع أصحاب العقائد المختلفة فى مملكته حرية العبادة ببعض القيود ، فقد كان الروم الكاثوليك ، والمسلمون ، واليهود يمارسون شعائر دينهم دون أن يصيبهم أذى ، ولكنهم لم يكن فى مقدورهم (إلا فى حالة واحدة) أن يدرّسوا فى الجامعة ، أو أن يرقوا إلى منصب رسمى فى الدولة . وكان يحتم على جميع المسلمين والعبرانيين أن يرتدوا ثيابا تميزهم عن المسيحيين ، وألزم المسلمين واليهود بأن يؤدوا نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ضريبة الفرضة التى كان الحكام المسلمون يفرضونها على المسيحيين واليهود ؛ وكانت شرائع فردريك تعاقب من يعتنق الدين اليهودى أو الإسلامى من المسيحيين أشد العقاب ، غير أنه لما اتهم يهود فلدا Fulda فى عام ١٢٣٥ بأنهم يقتلون طفلا مسيحياً ليستخدموا دمه فى عيد فصحهم هب فردريك لإنقاذهم ، وكذب القصة وقال إنها خرافة اخترعها غلاظ القلوب ، وكان عنده فى بلاطه عدد من العلماء اليهود[٤٤] .

وأشد ما يلاحظ من تناقض فى حكم هذا المليك الذى يجرى على سنن العقل هو اضطهاده الإلحاد والملحدين . ذلك أن فردريك لم يكن يسمح فى بلاده بحرية التفكير أو القول لإنسان ما حتى أساتذة جامعته ، بل اختص نفسه ورفاقه دون غيرهم بهذه الميزة ، فقد كان كمعظم الحكام يرى أن الدين ضرورى لا غنى عنه للنظام الاجتماعى ، ولم يكن يقبل أن يقوض علماؤه دعائمه ؛ يضاف إلى هذا أن القضاء على الإلحاد ييسر قيام السلام المتقطع مع البابوات ؛ وجرياً على هذه السياسة أيد فردريك محكمة التفتيش كل التأييد على حين أن بعض الملوك فى القرن الثالث عشر ترددوا فى معاونتها ، وبذلك اتفق البابوات هم وعدوهم الألد فى هذه المسألة وحدها .

٣ — النزاع بين الإمبراطورية والبابوية

وأخذت أهداف فردريك البعيدة الواسعة المدى تزداد وضوحاً كلما تقادم حكمه فى فوجيا : كان يبغى أن يبسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها ؛ وأن يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ، ولعله كان يبغى أيضاً أن يجعل رومة كما كانت قبل عاصمة العالم الغربى السياسية والدينية معاً . ولما أن دعا الأعيان الإيطاليين والمدن الإيطالية إلى مجمع فى كرمونا Cremona عام ١٢٢٦ كشف عن أغراضه بأن أرسل الدعودة أيضاً إلى دوقية اسپليتو ، وكانت وقتئذ ولاية بابوية ، وبأن سير جنوده فى أراضى البابوات . وأمر البابا أعيان اسبليتو ألا يحضروا الاجتماع . وارتابت مدن لمباردية فى الدعوة فرأت فيها وسيلة يبغى بها فردريك أن يخضعها للإمبراطور خضوعاً حقيقياً لاخضوعاً اسمياً فحسب ، فأبت أن ترسل مندوبين عنها إلى الاجتماع ؛ ولم تكتف بهذا بل ردت على هذه الدعوة بأن ألفت العصبة اللمباردية الثانية التى تعهدت فيها مدائن ميلان ، وتورين ، وبرجامو ، وبرشيا ، ومانتوا ، ويولونيا ، وفيسنزا ،

وقيرونا ، وبدوا ، وتريزو أن تعقد فيما بينها حلفا دفاعيا هجوميا يدوم خمساً وعشرين سنة ؛ وبهذا لم يجتمع المجمع قط .

وخرج هنرى على أبيه فردريك فى عام ١٢٣٤ ، وتحالف مع العصبة اللمباردية ، فركب فردريك من جنوبى إيطاليا إلى رمز Worms وليس معه جنود ، بل كان معه بدلا منهم مال كثير ؛ وخمدت الفتنة حين ترامت إلى القائمين بها أخبار قدومه أو حين مست أيديهم ذهبه ؛ وزج هنرى فى السجن ، وظل يكتوى بناره سبع سنين ؛ وبينا كان ينقل إلى مكان آخر يحبس فيه ، عدا بجواده فوق جرف عال وهوى إلى أسفله جثة هامدة . وواصل فردريك سيره إلى مينز ، ورأس فيها مجمعاً ، أقنع فيه كثيرين من النبلاء الحاضرين أن ينضموا إليه فى حملة يعيد بها سلطة الإمبراطورية على لمباردية . واستطاع بفضل هذه المعونة أن يهزم جيش العصبة اللمباردية (١٢٣٧٨) ؛ واستسلمت له جميع مدنها ما عدا ميلان وبريشيا ، وعرض جريجورى التاسع وساطته بين الطرفين ، غير أنه لم يكن من المستطاع التوفيق بين آمال فردريك فى الوحدة وحب الإيطاليين الحرية .

وقرر جريجورى فى هذه الساعة الفاصلة أن ينضم إلى جانب العصبة ، وأن يجعل مصير سلطة البابوات الزمنية موقوفة على نتيجة هذه الحرب ، مع أنه كان وقتئذ رجلا مريضاً فى سن التسعين . ولم يكن جريجورى، مولعاً بحب المدن اللمباردية ، فقد كان مثل فردريك يرى أن حريتها هى الطريق المؤدى إلى النزاع والفوضى ، ويعرف أنها تأوى الملحدين الذين يعارضون جهرة فى ثروة الكنيسة وسلطته الزمنية . وفى هذا الوقت بالذات كان الملحدون من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التى تحمل صورة المسيح(٤٥) . ولكن جريجورى كان يعتقد أنه إذا تغلب فردريك على هذه المدن ، ابتعلت إيطاليا الموحدة الولايات البابوية ، وتألفت منها كلها إمبراطورية موحدة يسيطر عليها عدو للمسيحية وللكنيسة . ولهذا أقنع جريجورى مدينتى البندقية وجنوى

بالانضمام إليه هو والعصبة فى حرب يشنها على فردريك ؛ ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة ، اتهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف ، والاستبداد ، وبالرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه فى عام ١٢٣٩ ، وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التى أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة دورية بعث بها إلى ملوك أوربا ينفى فيها تهمة الكفر ، ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية ، وأخذ النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجرى فى مجراه .

وأظهر ملوك أوربا عطفهم على فردريك ، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه إليهم من معونة . كذلك انحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه ، لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدنهما إلى طاعتهم الإقطاعية ؛ أما فى المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام إلى جانب البابا ، وعادت إلى الوجود عبارتا ويبلنج وولف Waibling and Welf بعد أن تحولتا إلى لفظى جبلين وجلف Ghibelline and Gulf ليدل أول اللفظين على أنصار الإمبراطورية ، والثانى على المؤيدين للبابوية . ولم تخل رومة نفسها من هذا الانقسام ، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك ؛ ولما أن اقترب من رومة بجيش صغير أخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له أبوابها لأنها رأت فيه قيصراً ثانياً . وتوقع فردريك أن يلقى القبض عليه ، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين . وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه ، وعمد الكثيرون منهم إلى أسلحتهم للدفاع عنه . ولم يشأ فردريك أن يحسم الموقف فى ذلك الوقت فمر برومة دون أن يعرج عليها وقضى الشتاء فى فجيا .

وكان قبل ذلك قد أقنع الأمراء الألمان بأن يتوجوا ابنه كنراد ملك الرومان (١٢٣٧) ، ووضع زوج ابنته على رأس حكومة ڤيسنزا ، وبدوا ،

وتريشيزو ، كما وضع على رأس حكومة المدن الأخرى التى استسلمت له انزيو أحب أبنائه إليه وهو « صورة منا فى وجهه وقوامه » ، فقد كان وسيما ، فخوراً ، مرحاً ، شجاعاً فى الحرب ، بارعاً فى قول الشعر . واستولى الإمبراطور على راڤنا وفائنزا فى عام ١٢٤٠ ، وخرب فى عام ١٢٤١ بنڤنتو مركز القوات البابوية . واعترض أسطوله قافلة بحرية من جنوى تنقل إلى رومة طائفة من الكرادلة ، والمطارنة ، ورؤساء الأديرة ، والقساوسة الفرنسيين والأسبان والإيطاليين ، وحجزهم فردريك فى أبوليا ليتخذهم رهائن يساوم بهم ؛ وما لبث أن أطلق الفرنسيين منهم ، ولكنه أطال احتجاز الباقين ، ومات عدد منهم فى السجن ، فارتاعت أوربا التى طالما رأت أن رجال الدين محصنون يجب ألا يعتدى عليهم ، وكثر وقتئذ عدد الذين يعتقدون أن فردريك هو المسيح الدجال الذى تنبأ بظهوره يواقيم الفلورى Joochim of Flora الصوفى منذ بضع سنين . وعرض فردريك أن يطلق رجال الدين إذا رضى جريجورى أن يعقد معه الصلح ولكن البابا لم يتزحزح عن موقفه إلى يوم مماته (١٢٤١) .

وكان إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه ، فقد وافق بتحريض القديس لويس على شروط للصلح (١٢٤٤) ، ولكن مدن لمبارديا امتنعت عن التصديق على الاتفاق ، وذكرت إنوسنت بأن جريجورى قد تعهد بألا تعقد البابوية صلحاً منفردا مع فردريك . وغادر إنوسنت رومة سراً ، وهرب إلى ليون Lyons ، وواصل فردريك الحرب ، وبدا أن ليس ثمة قوة تستطيع منعه من فتح الولايات البابوية وضمها إلى دولته وإقامة سلطانه فى رومة . ودعا إنوسنت رجال الدين إلى مجلس عقد فى ليون ، وكرر هذا المجلس حرمان الإمبراطور وخلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق ، عاق ، وتابع عديم الولاء لسيده البابا الذى يقر بسيادته عليه (١٢٤٥) . واختار النبلاء الألمان ، بتحريض البابا ، هنرى رابس Henry Rapse إمبراطوراً بدل فردريك ، فلما مات نادوا بوليم الهولندى William of Holland

خلفاً له . وأصدر البابا قراراً بحرمان كل من يساعد فردريك ، وحرمت الخدمات الدينية فى كل الأقاليم الموالية له ؛ وأعلنت عليه هو وإنزيو حربا صليبية ، ومنح الذين حملوا الصليب للقتال فى فلسطين إذا اشتركوا فى قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التى تمنح الصليبيين .

وأطلق فردريك العنان لحقده وشهوة انتقامه ، وأقدم على أعمال قطعت عليه خط الرجعة . فأصدر « منشوراً للإصلاح » يعلن فيه أن رجال الدين « عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شىء من تقواهم »[٤٦] . ثم صادر ما للكنيسة من أملاك فى الصقليتين ليستخدم ثمنها فى حربه ، ولما أن تزعمت بلدة فى أبوليا مؤامرة للقبض عليه ، أمر برؤساء المتآمرين فاقتلعت عيونهم وبترت أعضاؤهم ثم قتلوا . ولما أن استنجد به ابنه كنراد ، اتخذ سبيله إلى ألمانيا ، ولكنه علم وهو فى تورين أن پارما قد انتفضت على حاميته التى بها ، وأن الخطر محدق بإنزيو ، وأن الثورة قد اندلع لهيبها فى إيطاليا الشمالية كلها وصقلية نفسها ، فأخذ يقلم أظفار فتنة بعد فتنة فى مدينة تلو مدينة ، ويأخذ الرهائن من كل واحدة منها ، ويقتل أولئك الرهائن حين تثور عليه مدنهم . وإذا وجد فى الأسرى رسلا للبابا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم[٤٧] .

وبينا كان الحصار مضروباً على پارما سئم فردريك طول البطالة فخرج هو وإنزيو وخمسين من الفرسان لصيد طيور الماء فى المستنقعات المجاورة للمدينة . وبينا هم فى صيدهم خرج رجال پارما ونساؤها على المحاصرين وهجموا عليهم هجوم اليائسين ، فتغلبوا على قوات الإمبراطور المختلة النظام المعدومة القيادة ، واستولوا على أموال الإمبراطور وحريمه ووحوشه ، فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة ، وجهز جيشاً جديداً ، وواصل القتال . وجاءته الأنباء بأن پيرو دلى فجنى وزيره الأول وموضع ثقته قد غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده ؛ فأمر بالقبض عليه وفقء عينيه ، فما كان من پيرو بعد أن فعل به هذا إلا أن أخذ يضرب

برأسه جدران سجنه حتى مات (١٢٤٩) . وجاءته الأنباء فى تلك السنة نفسها أن سكان بولونيا قد أسروا إنزيو فى المعركة التى قامت عند لافسالتا La Fossaalta ، وحدث فى الوقت عينه أن حاول طبيب فردريك أن يقتله بالسم ؛ وحطمت هذه الضربات المتوالية السريعة روح الإمبراطور ، فارتد إلى أپوليا ولم يشترك بعدئذ فى الحرب القائمة . وانتصر قواده فى عدة معارك عام ١٢٥٠ ، ولاح أن الحظ قد عاد يواتيه . فقد طلب القديس لويس وهو فى أسر المسلمين فى مصر إلى إنوسنت الرابع أن يضع حداً للقتال حتى يستطيع فردريك أن يخف لنجدة الصليبيين . ولكن صحة الإمبراطور أخذت فى الوهن ولم تفدها هذه الآمال المنعشة ، فقد حطم الزحار — وهو البلية التى طالما أذلت ملوك العصور الوسطى — ، جسم الإمبراطور المتغطرس . وطلب أن تغفر له ذنوبه ، فأجيب إلى طلبه ، ولبس الإمبراطور الملحد مسوح الرهبان السسترسيين ، ومات فى فلورنتينو فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠ . وتهامس الناس بأن روحه قد حملتها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم .

ولم يظهر بعد موته ما له من نفوذ ، فسرعان ما انهارت إمبراطوريته ، وتفشت فيها الفوضى أشد مما كانت عليه حين جلس على عرشها . واختفت الوحدة التى قضى حياته يحارب من أجلها حتى من ألمانيا نفسها ، وسارت المدن الإيطالية فى ركب الحرية وقوتها الناشطة المبدعة ، وسلكت طريق الفوضى ، فأدى بها إلى استبداد الأدواق والزعماء اللصوص الذين ورثوا ، وهم لايكادون يدركون ، فساد فردريك الخلقى ، وحريته الفكرية ، ومناصرته الآداب والفنون . والحق أن ما كان يتصف به طغاة عصر النهضة من ذكاء قوى مجرد من الضمير كان صدى لخلق فردريك وعقله خالياً من ظرفه وفتنته . وإنا لنستبين فى تفكير فردريك وفى حاشيته حلول الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس ، والعقل محل الإيمان ، والطبيعة محل الله ، والضرورة محل العناية الإلهية ،

ثم استولت هذه النزعة بعد فترة من الاستمساك بالدين على عقول فلاسفة النهضة وكتابها الإنسانيين . وملاك القول أن فردريك كان « رجل النهضة » قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام . نعم إن مكيڤلى كان يتحدث فى كتاب **الأمير** وفى عقله سيزارى بورچيا Coesar Borgis ولكن فردريك هو الذى مهد السبيل لفلسفة كتاب الأمير . وكذلك كان نتشة ينظر بعين فكره إلى بسمارك ونابليون ، ولكنه لم يكن ينكر أثر فردريك — « أول من يوافق هواى من الأوربيين »[٤٨] . وقد ارتاعت الأجيال التى جاءت بعده بأخلاقه ، وافتتنت بعقله ، وقدرت بعض التقـدير عظمة مطامعه الإمبراطورية ، فوصفته المرة بعد المرة بالصفات التى ابتدعها ماثيو باريس حين قال عنه إنه الرجل « العجيب الذى بدل العالم وأثار عجبه super mundi et immutator mirabilis » .

الفصل السادس

تمزق إيطاليا

أوصى فردريك لابنه كنراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد Manfred ابنه غير الشرعى نائباً عن الإمبراطور فى إيطاليا ، وشبت نار الفتنة فى كل مكان تقريباً فى إيطاليا ، وخضعت نابلى ، واسپليتو ، وأنكونا ، وفلورنس لمبعوثى البابا ، ونادى إنوسنت الرابع : « فلتبتهج السماء ولتفرح الأرض ! » وعاد البابا منتصراً إلى إيطاليا ، واتخذ نابلى مقر قيادته الحربية ، وزحف منها ليضم الصقليتين إلى الولايات البابوية ، ووضع الخطط ليفرض على مدن إيطاليا الشمالية سيادة أقل سفوراً من سيادته على تلك الولايات . ولكن هذه المدن عقدت العزم على أن تحمى استقلالها من البابوات والأباطرة على السواء ، وإن رضيت أن تشترك مع البابا فى الصلوات . وكان إزلينو Ezzlino وأبرتر پلاڤيسينو Uberto Pallavicino يسيطران على عدد من المدن ويدينا فيها بالولاء لكنراد . ولم يكن فى قلب كلا الرجلين شىء من الاحترام للدين ؛ فنشأ الإلحاد فى أيامهما ، وكان يخشى أن تفقد الكنيسة شمالى إيطاليا كله . وهبط كنراد الشاب فجاءة بجيش جديد من جبال الألب ، وأعاد فتح البلدان الإيطالية المتنمرة ، ودخل مملكة الصقليتين منتصراً ، ولكنه لم يدخلها إلا ليموت بالملاريا (مايو سنة ١٢٥٤) . وتولى مانفرد قيادة قوات الإمبراطور ، وبدد شمل جيش بابوى بالقرب من فُجيا (٢ ديسمبر) . وبلغت هذه الهزيمة مسامع البابا وهو على فراش الموت فمات بائساً مغموماً (٧ ديسمبر) يقول بصوت خافت : « رباه لقد أفسدت الإنسان عقاباً له على ظلمه » .

أما ما بقى من القصة فهو الفوضى السافرة ، فقد شن البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٥٦) حرباً صليبية على إزلينو ، جرح فيها هذا الطاغية ووقع فى الأسر ، وأبى أن يعوده الأطباء أو القساوسة أو أن يتناول الطعام، وأمات نفسه جوعا ، دون أن يتوب أو يقبل منه الاعتراف(١٢٥٩) . وأسر أيضا أخوه ألبريجو Alberigo ، وكان مثله فى وحشيته وجرائمه ، وأرغم على أن يشهد بعينيه تعذيب أسرته ؛ ثم انتزع لحمه من جسمه بالكلاليب ، وشد وهو لا يزال حيا إلى جواد ؛ وجر على الأرض حتى مات(٤٩) . واندفع المسيحيون والكافرون وفتئذ فى الأعمال الوحشية ما خلا مانفرد المرح النَّغل ، وبقى مانفرد طوال الست السنين التالية سيد إيطاليا الجنوبية بعد أن أوقع بالجيوش البابوية هزيمة أخرى عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) . وكان يجد متسعاً من الوقت للغناء وكتابة الشعر « ولم يكن له مثيل على ظهر الأرض » على حد قول دانتى « فى العزف على الآلات الوترية »(٥٠) . ولما يئس إربان الرابع (١٢٦١ — ١٢٦٤) من أن يجد فى إيطاليا من يرد مانفرد عن غيه ، وأدرك أن البابوية يجب أن تعتمد من ذلك الوقت على حماية فرنسا إياها ، طلب إلى لويس التاسع أن يقبل ملك الصقليتين إقطاعية من البابا . ورفض لويس هذا العرض ، ولكنه أجاز لأخيه شارل دوق أنجو أن يقبل من إربان « مملكة ناپلى وصقلية » (١٢٦٤) . واخترق شارل إيطاليا على رأس ثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين وبدد شمل جيش مانفرد الذى كان أقل من جيشه عددا وقفز مانفرد فى وسط أعدائه ومات ميتة أشرف من ميتة أبيه . ونزل فى العام الثانى صبى فى الخامسة عشرة من عمره وهو كنرادين Conradin من ألمانيا ليتحدى شارل ، ولكنه هزم عند تجليا كزو Tagliacozzo وضرب رأسه علنا فى ميدان السوق بناپلى عام ١٢٦٨ . وانتهى بمقتله وموت إنزيو الذى طال سجنه بعد أربع سنين من ذلك الحين أجل بيت هوهنستاوفن نهاية محزنة ، وأصبحت الدولة الرومانية المقدسة شيئاً لا وجود

له إلا فى المظاهر والحفلات ، وانتقلت زعامة أوربا إلى فرنسا .

واتخذ شارل نابلى عاصمة له ، وأوجد فى الصقليتين أرستقراطية وبيرقراطية فرنسيتين ، وأقام فيها جيشاً فرنسيا ، ورهباناً وقساوسة فرنسيين ، وحكم البلاد وجبى الضرائب بوسائل استبدادية جعلت أهلها يتمنون لو بعث فردريك حيا ، كما جعلت البابا كلمنت الرابع يتمنى لو أن البابوية لم تنتصر . وبينا كان شارل يستعد لقيادة أسطوله لفتح القسطنطينية إذ ثار العامة فى بالرم يوم الاثنين التالى لعيد القيامة من عام ١٢٨٢ بعد أن انطلق حقدهم الكامن فى صدورهم لأن جنديا فرنسيا أساء الأدب مع عزوس صقلية ، وقتل الغوغاء كل فرنسى فى المدينة . وليس أدل على الحقد الدفين الذى كان يغلى فى صدور الصقليين من الوحشية التى كانت تدفع رجالهم لأن يشقوا بسيوفهم أرحام النساء اللاتى حملن من الجنود أو الموظفين الفرنسيين ثم يطأون الأجنة الأجنبية حتى تموت تحت أقدامهم[٥١] . وحذت مدن أخرى حذو بالرم حتى قتل ثلاثة آلاف من الفرنسيين فى مذبحة تعرف باسم « مذبحة صلاة المساء » لأنها بدأت فى ساعة تلك الصلاة . ولم ينج من القتل رجال الدين فى الجزيرة ؛ فقد هاجم الصقليون المعروفون بالتقى والصلاح الكنائس والأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة دون أن يعبأوا بكرامة رجال الدين . وأقسم شارل دوق أنجو أن ينتقم من الجزيرة انتقاما لا تنمحى آثاره مدى ألف عام ، وتوعدها بأن يتركها « صخرة صماء جرداء خالية من السكان »[٥٢] . وحرم البابا مارتن Martin الرابع العصاة من حظيرة الدين وأعلن حربا صليبية على صقلية . ولما عجز الصقليون عن حماية أنفسهم عرضوا الجزيرة على بدرو الثالث صاحب أرغونة . وجاء بدرو إلى الجزيرة بجيش وأسطول وثبت أسرة أرغونة ملوكا على صقلية (١٢٨٢) . وبذل شارل كل ما فى وسعه ليسترد الجزيرة ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فقد دمر أسطوله ، ومات وهو منهوك القوى مغموماً حزيناً

فى فجيا (١٢٨٥) . واكتفى خلفاؤه بعد سبعة عشر عاما من الكفاح غير المجدى بمملكة ناپلى .

أما المدن الإيطالية القائمة فى شمال رومة فقد أخذت تثير الخصام بين الإمبراطورية والبابوية ، واستطاعت بذلك أن تحتفظ بنوع من الحرية الطائشة الجموحة . وظلت أسرة دلا تورى Della Torre تحكم ميلان عشرين عاماً حكما ارتضاه سائر أهلها ، ثم استولت على زمام الأمور عصبة من النبلاء بزعامة أتوفسكنتى Otto Visconti عام ١٢٧٧ ، وأنشأ آل فسكنتى الملقبين بالكبتانى (الرؤساء) أو الدوتشى duci حكومة أبلحركية حازمة قديرة حكمت المدينة مائة وسبعين عاماً . وكانت الكونتة ماتلدا قد أوصت للبابوية بإقليم تسكانيا بما فيه مدائن أرزو Arezzo ، وفلورنس ، وسينا Siena ، وپيزا ، ولوكا (١١٠٧) ؛ ولكن هذه السيادة البابوية الصورية قلما كانت تنقص من حق مدائن الإقليم فى أن تحكم نفسها أو تولى عليها من تختارهم من الطغاة .

وكان لسينا كما كان لكثير غيرها من المدن التسكانية ماض تعتز به ، يرجع إلى أيام التسكانيين الأقدمين . وكانت غارات البرابرة قد خربت تلك المقاطعة ، ولكنها انتعشت فى القرن الثامن لأنها أضحت محطة وسطى فى طريق الحج والتجارة بين فلورنس ورومة . ونحن نسمع عن وجود نقابات طائفية للتجار بتلك المدينة فى عام ١١٩٢ ثم بمثلها للصناع ثم لأصحاب المصارف ، حتى أصبح بيت بونسنيورى Buonsignori الذى أنشئ فيها عام ١٢٠٩ من أشهر المؤسسات التجارية والمالية فى أوربا كلها ، وكان له وكلاء فى جميع أنحائها ، وبلغت القروض التى أمد بها التجار ، والمدن ، والملوك ، والبابوات مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل . وكانت فلورنس وسينا تتنازعان السيطرة على طريق فرنسيسا Via Francesa الذى يصل كلتيهما بالأخرى ، وظلت المدينتان التجاريتان تحارب كلتاهما الأخرى حروبا منقطعة منهكة من عام ١٢٠٧ إلى عام ١٢٧٠ ؛ وانضمت سينا إلى الأباطرة فى الكفاح

القائم بين البابوية والإمبراطورية لأن فلورنس انحازت إلى جانب البابوية ، وكان انتصار مانفرد عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) فى واقع الأمر نصراً لسينا على فلورنس . ومع أن أهل سينا كانوا يقاتلون البابا ، فإنهم كانوا يعزون ما نالوه من نصر فى تلك الواقعة إلى قديستهم الشفيعة العذراء أم الإله . ووهبوا مدينتهم لمريم إقطاعية لها ، وطبعوا على نقدهم تلك العبارة الدالة على الزهو والخيلاء وهى **دولة العذراء** ، وضعوا مفاتيح المدينة تحت قدمى العذراء فى الكنيسة الكبرى التى سموها باسمها . وكانوا فى كل عام يحتفلون بذكرى انتقالها إلى السماء ويقيمون لذلك احتفالا رهيباً مثيراً . فقد كان جميع المواطنين من سن الثامنة عشرة إلى سن السبعين يسيرون إلى الكنيسة (duomo) فى ليلة العيد وبيد كل منهم شمعة مضاءة فى موكب فخم وراء قساوستهم وكبار موظفيهم ، فإذا أتوا الكنيسة جددوا يمين الولاء والطاعة إلى العذراء . وكان موكب آخر يسير فى يوم العيد نفسه ويتألف من ممثلين للمدن والقرى والأديرة المفتوحة أو التابعة لسينا ، وكان هؤلاء المندوبون يسيرون أيضاً إلى الكنيسة يحملون الهدايا ، ويجددون يمين الطاعة والخضوع لحكومة مدينة سينا ولملكتها . وكانت سوق عامة تقام فى ميدان المدينة فى هذا اليوم ، ويستطيع الأهلون أن يشتروا فيها بضائع آتية من مائة مدينة ، ويقوم فيها البهلوان والمغنى والموسيقى بأدوارهم ، ولم يكن يزيد عن عدد الذين يؤمون وكر الميسر فى المدينة إلا من يؤمون ضريح مريم نفسها .

وكانت الأعوام المائة التى بين ١٢٦٠ ، ١٣٦٠ هى التى بلغت فيها ذروة عظمتها ، ففى هذه السنين المائة شادت كنيستها (١٢٤٥ — ١٣٣٩) ، وأنشأت قصرها العام الذائع الصيت (١٣١٠ — ١٣٢٠) ؛ وبرج الأجراس الجميل (١٣٢٥ — ١٣٤٤) . ونحت نقولو بيزانو Nccolo Pisano فسقية فخمة للكنيسة فى عام ١٢٦٦ ؛ ولم يحل عام ١٣١١ حتى كان دوتشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna قد شرع يزين كنائس المدينة بعدد من أقدم روائع صور النهضة

الزيتية . بيد أن هذه المدينة الفخورة كانت تقوم بأعمال لا تحتملها مواردها ، وكان نصر منتابرتو ضربة قاضية على سينا ، فقد أصدر البابا المهزوم قرار الحرمان على المدينة ، وحرم دخول البضائع فيها أو أداء الديون لها ، وأفلس عدد كبير من مصارفها ، حتى إذا كان عام ١٢٧٠ ضم شارل دوق أنجو المدينة المعذبة إلى عصبة الحلف (أو العصبة البابوية) . وظلت سينا من ذلك الحين تسيطر عليها وتفوقها منافستها القوية الفاتحة فى الشمال والتى لا تشعر نحوها بشىء من الرحمة .

الفصل السابع

نهضة فلورنس : ١٠٩٥ - ١٣٠٨

سميت فلورنس بهذا الاسم لكثرة أزهارها ، وقد نشأت قبل المسيح بمائتى عام لتكون محطة تجارية على نهر الآرنو حيث يلتقى برافده المنيون Magnon ، وخربتها غارات البرابرة ، ولكنها استفاقت فى القرن الثامن وصارت ملتقى الطرق على ڤيا فرنسيسا Via Francesa بين فرنسا وروما . وكانت سهولة اتصالها بالبحر المتوسط عاملا فى تشجيع تجارتها البحرية . وأنشأت فلورنس أسطولا تجارياً كبيراً يحمل إليها الأصباغ والحرير من آسية ، والصوف من إنجلترا وأسپانيا ، ويحمل منها المنسوجات إلى نصف بلاد العالم . واحتفظت فلورنس ببعض الأسرار الصناعية التى أمكنت صباغيها من أن يلونوا الأقمشة الحريرية والصوفية بظلال من الألوان الجميلة ، لا تعلو عليها ألوان أخرى حتى فى بلاد الشرق التى برعت فى هذه الصناعة من زمن بعيد . وكانت نقابتا الصوف الشهيرتان — وهما **نقابة الصوف ونقابة الحارة الخبيثة** (*) . تستوردان حاجتهما من الصوف وتجنيان مكاسب طائلة من نسجه وتحويله بضائع جاهزة . وكان الجزء الأكبر من العمل يجرى فى مصانع صغيرة بعضها فى بيوت المدن أو الريف . وكان التجار هم الذين يوردون إليها المواد الغفل ، ويجمعون البضائع التى تباع فى الأسواق ، ويدفعون أثمانها قطعة قطعة . وكانت المنافسة القائمة بين الصناع الذين يعملون فى منازلهم — وخاصة السيدات العاملات — سبباً فى بقاء مستوى الأجور منخفضاً فى هذه

(*) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مركز المعروضات فيها المسمى بهذا الاسم والذى كان من قبل مكاناً مخصصاً للعاهرات .

المصانع ؛ ولم يكن يسمح للنساجين بأن يقوموا بعمل إجماعى لرفع أجورهم أو تحسين أحوال أعمالهم ؛ وكانت الهجرة محرمة عليهم . وأراد أصحاب هذه المصانع أن يزيدوا من تأديب الصناع وإرغامهم على حفظ النظام ، فأقنعوا الأساقفة بأن يصدروا رسائل دينية تتلى من فوق المنابر أربع مرات فى العام وتنذر العامل الذى يعتاد إتلاف الصوف بغضب الكنيسة وبالحرمان نفسه[٥٣] .

وكانت هذه الصناعة والتجارة تحتاجان إلى رءوس الأموال لتستثمر فيهما ، وسرعان ما أدى هذا إلى قيام التنافس بين التجار وأصحاب المصارف للسيطرة على الحياة فى فلورنس . واستطاع أصحاب المصارف أن يمتلكوا ضياعا واسعة باستيلائهم على الأراضى المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهونها ، كما أصبحوا ممن لا غنى عنهم للبابوات لسيطرتهم المالية على أملاك الكنائس المرهونة لهم ، وكادوا فى القرن الثالث عشر يحتكرون شئون البابوات المالية فى إيطاليا[٥٤] . ولهذا فإن تحالف فلورنس مع البابوات بصفة عامة فى نزاعهم مع الأباطرة كان الباعث عليه هذه العلاقة المالية من جهة وخشية الفلورنسيين من اعتداء الأباطرة والأشراف على حرية البلد والتجار من جهة أخرى . ومن أجل هذا كان رجال المصارف أكبر المؤيدين لحزب البابا فى فلورنس ، فهم الذين قدموا المال اللازم لحملة شارل دوق أنجو على إيطاليا إذ أقرضوا البابا إربان الرابع ١٤٨ر٠٠٠ جنيه فرنسى (أى ٢٩ر٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما استولى شارل على نابلى سمح لأصحاب المصارف الفلورنسيين أن يسكوا النقود ويجبوا الضرائب فى المملكة الجديدة ، وأن يحتكروا تجارة الأسلحة ، والحرير ، والشمع ، والزيت ، والحبوب ، وتوريد الأسلحة والمؤن للجنود ، كل ذلك ليضمنوا تحصيل قرضهم السالف الذكر[٥٥] . وإذا جاز لنا أن نصدق دانتى ، فإن هؤلاء الماليين الفلورنسيين لم يكن لهم ما لأمثالهم فى هذه الأيام من ظرف وكياسة ، بل كانوا قناصة للمال ، غلاظا شرهين ، يجنون الأرباح الطائلة بالاستيلاء على الأراضى التى يغلق رهنها ، ويتقاضون فوائد باهظة

عن القروض دون أن يكون لهم وازع من دين أو ضمير — وما أشبههم بفلكو بوتنارى Folco Potinari متبنى بيتريس Beatrice فى ملهاة دانتى(٥٦) . وكانوا يقومون بأعمالهم فى إقليم واسع الرقعة ، فنحن نجد مصرفين فلورنسيين — مصرف برونلسشى Brunelleschi ومصرف ميديشى Medici يسيطران على الأعمال المالية فى نيمر Nimes » وأمدييت فرانزيسى Franzesi الفلورنسى فليب الرابع بما يحتاجه من المال لحروبه ودسائسه ، وظل الماليون الإيطاليون من بداية حكمه يسيطرون على الشئون المالية الفرنسية حتى القرن السابع عشر . كذلك استدان إدورد الأول ملك إنجلترا ٢٠٠٫٠٠٠ فلورين ذهبى (٢٫١٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) من بيت فرسكوبلدى Frescobaldi الفلورنسى عام ١٢٩٥ . وكانت هذه القروض معرضة للخطر ، كما كانت تخضع الحياة الاقتصادية فى فلورنس إلى الحوادث النائية التى ليست لها فى ظاهر الأمر أية صلة بها . وعقدت عدة صفقات استثمار سياسية ، وعجزت بعض الحكومات عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، ثم سقط بنيفاس الثامن وانتقل مقر البابوية إلى أڤنيون (١٣٠٧) فأدى هذا إلى إفلاس عدد من المصارف فى إيطاليا وإلى حلول كساد عام وحرب عوان بين الطبقات :

وكانت ثلاث طبقات تقتسم الحياة المدنية غير الدينية فى فلورنس : « الشعب الصغير popolo minuto — ويشمل أصحاب الحوانيت ، والشعب السمين popolo grasso ويشمل أصحاب الأعمال ورجال الصناعة والتجارة ، والعظماء grandi أى النبلاء . وكان الصناع يؤلفون النقابات الصغرى ويستغلهم فى الأعمال السياسية أصحاب الأعمال والتجار ورجال المال الذين يملأون النقابات الطائفية الكبرى . وكان « الشعب الصغير » و « الشعب السمين » يأتلفان وقتاً ما للوقوف فى وجه الأعيان فى التنافس القائم للسيطرة على الحكومة . وكان هؤلاء الأعيان يطالبون لأنفسهم بمكوس إقطاعية من المدينة ، وقد أيدوا فى أول الأمر الأباطرة ثم أيدوا البابوات ضد حركات المدينة . ونظمت هاتان الطبقتان

المؤتلفتان جيشاً إقليمياً كان على جميع الصحيحى الأجسام من أهل المدينة أن ينضموا إليه وأن يتعلموا فيه فنون الحرب . فلما تهيأت أسباب القوة بهذا الاستعداد استولوا على قصور الأشراف الحصينة القائمة فى الريف ، ودمروها وأرغموا أصحابها على السكنى داخل أسوار المدينة والخضوع للقوانين البلدية . وكان النبلاء لا يزالون أغنياء بما يحصلون عليه من ريع أملاكهم فى الريف ، فشادوا لهم قصوراً حصينة فى المدن ، وانقسموا أحزاباً ، وأخذوا يتقاتلون فى الشوارع ، ويتنافسون ليروا أى حزب يسبق الآخر لقلب الدمقراطية الضيقة المدى القائمة فى فلورنس وإحلال دستور أرستقراطى محلها . وتزعم حزب الأوبرتى Uberti ثورة قام بها الغبليون ليقيموا فى فلورنس حكومة موالية لفردريك ، واستبسلت الطبقتان المؤتلفتان فى المقاومة ، ولكن كتيبة من الفرسان الألمان أوقعت بهما هزيمة ساحقة ، وسقطت الدمقراطية الفلورنسية ، وفر زعماء الجلف من المدينة ، وهدمت بيوتهم انتقاماً لما قاموا به من تدمير قصور رجال الإقطاع منذ مائة عام ؛ وجرى الأهلون من ذلك الوقت عقب كل انتصار فى حروب الطبقات والأحزاب على أن يحتفلوا بالنصر بنفى زعماء الطبقة المغلوبة ومصادرة أملاكهم أو تخريبها[٥٧] . وظل أشراف الغبليين ثلاث سنين يحكمون المدينة تؤيدهم حامية من جنود الألمان ، فلما مات فردريك قامت ثورة جلفية من الطبقتين الوسطى والدنيا واستولى الثوار على زمام الحكم (١٢٥٠) وعينوا زعيما للشعب ليراقب أعمال البودستا كما كان التربيونون فى رومة القديمة يراقبون أعمال القناصل . واستدعى زعماء الجلف المنفيون ، وأيدت الطبقات الوسطى المنتصرة ما نالته من نصر داخلى بحروب شنتها على پيزا وسينا للسيطرة على طريق تجارة فلورنس إلى البحر وإلى رومة ، وأصبح أغنى أغنياء التجار نبلاء جددا ، وعملوا على احتكار وظائف الدولة لأنفسهم .

ولما هزم مانفرد وسينا مدينة فلورنس فى منتابرتو أعقب ذلك فرار زعماء

الجلف مرة أخرى ، وظلت فلورنس بعد فرارهم ست سنين يحكمها مندوبون عن مانفرد . فلما خسرت الإمبراطورية قضيتها فى عام ١٢٦٨ عادت السلطة مرة أخرى إلى أيدى الجلف الخاضعين خضوعا اسميا لشارل دوق أنجو . وأرادوا أن يقيدوا سلطان البودستا المعين من قبل شارل فأقاموا إلى جانبه هيئة مؤلفة من اثنى عشر من الأنزيانى anziani (أى « الأقدمين » أو الكبراء) ليسدوا النصح إلى ذلك الموظف ، ومجلساً مكونا من مائة عضو « لا ينفذ عمل من الأعمال الهامة ولا ينفق أى اعتماد مالى إلا إذا وافق عليه أولا »[٥٨] . واغتنمت الطبقات الوسطى الرأسمالية فرصة انشغال شارل « بالمذبحة المسائية » فقاموا فى عام ١٢٨٢ بانقلاب دستورى أصبحت بمقتضاه هيئة مؤلفة من الرؤساء ومختارة من النقابات الطائفية الكبرى هى المسيطرة بالفعل على حكومة المدينة . وظل منصب البورستا باقيا فى خلال هذه التقلبات ، ولكنه كان مجردا من السلطان ، لأن السلطة العليا انتقلت إلى أيدى التجار وأصحاب المصارف .

وأعاد حزب الأشراف القدامى المغلوب تنظيم نفسه برياسة كرسو دوناري الرجل الوسيم المتغطرس ، وأطلق عليهم لسبب غير معروف اسم « النرى Neri » أى السود ، وسمى النبلاء الجدد أصحاب المصارف والتجار الذين تزعمتهم أسرة شرشى Cherchi باسم البيض Blanchi . ويئس النبلاء القدامى من معونة الإمبراطورية المحطمة فولوا وجههم شطر البابا يستعينونه على الطبقة الوسطى الرأسمالية . ودبر دوناتى Donati ، بوساطة آل سبينى Spini وكلائه فى فلورنس ، تدبيره مع بنيفاس الثامن للاستيلاء على فلورنس ؛ وكانت الأحزاب التسكانية قد امتد نفوذها إلى الولايات البابوية فلم تترك لبنيفاس أملا فى إعادة النظام إليها إلا إذا كان له صوت مسموع فى حكومات تسكانيا البلدية[٥٩] . وعرف أحد رجال القانون الفلورنسيين خبر هذه المفاوضات فأنهم ثلاثة وكلاء من أسرة سبينى فى رومة بخيانة فلورنس ، وأدانت الهيئة الحاكمة المؤلفة من مندوبى النقابات

الطائفية الكبرى ثلاثتهم (إبريل ١٣٠٠) فهدد البابا من اتهموهم بالحرمان ؛ وهاجمت جماعة من النبلاء المسلحين من حزب دوناتى عدداً من كبار رجال النقابات ، فقررت هيئة المندوبين السالفى الذكر ، وكان دانتى وقتئذ من أعضائها ، نفى عدد من النبلاء متحدية بذلك البابا (يونية ١٣٠٠) : واستنجد بنيفياس بشارل دوق ڤالوا Valois وطلب إليه أن يدخل إيطاليا ، ويخضع فلورنس ، ويسترد صقلية من أرغونة .

ووصل شارل فلورنس فى نوفمبر من عام ١٣١٠ ، وأعلن أنه لم يأت إليها إلا لإعادة النظام والسلم فى ربوعها ، ولكن كرسو دوناتى دخل المدينة بعد قليل من ذلك الوقت على رأس جماعة مسلحة ، ونهب بيوت المندوبين الذين نفوه ، وفتح أبواب السجون ، ولم يطلق أصدقاءه وحدهم ، بل أطلق كل من أراد الخروج منها . وساد الهرج والمرج المدينة ، واشترك النبلاء والمجرمون فى السرقة ، وخطف الآدميين ، وقتلهم ؛ ونهبت مخازن التجارة ، وأرغمت الوارثات على الزواج من خطاب مفاجئين ، واضطر الآباء إلى إمضاء وثائق ببائنات كبيرة . وأخرج كرسو آخر الأمر هيئة مندوبى النقابات والپودستا من وظائفهم ، واختار السود مندوبين جدداً يعرضون جميع اقتراحاتهم على زعماء السود ، وظل كرسو سبع سنين حاكما بأمره لا معقب لحكمه فى فلورنس . وحوكم المندوبون المعزولون وأدينوا ، وحكم عليهم بالنفى ومنهم دانتى نفسه (١٣٠٢) ، وحكم على ٣٥٩ من البيض بالإعدام ، ولكن أجيز لمعظمهم النجاة من الموت بالنفى من البلاد .. وقبل شارل ڤالوا هذه الحوادث راضيا ، وقبل معها ٤٤٫٠٠٠ فلورين (٤٨٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على ما عانى من مشقة ، وغادر فلورنس إلى الجنوب . وفى عام ١٣٠٤ أحرق السود الذين أفلت زمامهم بيوت أعدائهم ، فدمر فى هذه الحرائق ١٤٠٠ بيت ، وأصبح وسط فلورنس رماداً وخرائب . ثم تفرق السود

أحزاباً جدداً ، وحدثت أعمال من العنف لا حصر لها طعن فيها دوناتى طعنة أردته قتيلا (١٣٠٥) .

* * *

وبعد فإن علينا أن نذكر مرة أخرى أن المؤرخ كالصحفى ينزع على الدوام إلى أن يضحى بما هو طبيعى وعادى فى سبيل ما هو مسرحى مثير ؛ وأنه لا يرسم أبدا صورة وافية لأى عصر من العصور . لكن من واجبنا أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن إيطاليا كانت تستند فى أثناء هذا النزاع بين البابوات والأباطرة ، وبين الجلف والغبليين ، وبين السود والبيض ، إلى الفلاحين الكادحين ، ولربما كانت حقول إيطاليا فى ذلك الوقت كما هى الآن ميداناً للعمل الزراعى الفنى والجدى ، وأنها كانت مقسمة ومنظمة تسر العين وتطعم الفم . فقد كانت التلال والصخور والجبال تحفر وتدرج لتزرع فيها الكروم ، وأشجار الفاكهة ، وبساتين الجوز واللوز ، وأشجار الزيتون ؛ وكانت الحدائق تسور لمنع عوامل التعرية من اكتساح تربتها والاحتفاظ بالمطر الثمين . وكان فى الحواضر عدد لا يحصى من الصناعات يستوعب الكثرة الغالبة من الرجال ، ولا يترك إلا القليل من الوقت يصرف فى الخطب والانتخابات ، والمدى ، والسيوف . كذلك لم يكن التجار وأصحاب المصارف كلهم رجالا شرهين قساة القلوب ، وكانوا هم أيضاً ممن جعلوا المدينة تعج بالأعمال وتنمو وتتسع رقعتها لما يضطرم فيها من حمى الكسب إن لم يكن لشىء سواها ؛ وكان فى وسع النبلاء أمثال كورسو دوناتى ، وجيدو كفكنتى Guido Covalcanti ، وكان جراندى دلا اسكالا Can Grandi della Scala أن يكونوا رجال ثقافة ، وإن عمدوا إلى سيوفهم من حين إلى حين ليحسموا أمراً من الأمور . وكانت النساء ينخطرن بكامل حريتهن فى هذا المجتمع المرح ؛ ولم يكن الحب فيه لفظاً أجوف يردده الشعراء الغزلون أو يتمشدق به الفلاحون الكادحون ، أو خدمات يؤديها فارس لمعبودته الضنينة ؛ بل كان

هياماً سامياً حماسياً ينتهى بالاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وبالأمومة غير المتعمدة . وكان المدرسون فى أماكن متفرقة من هذا البحر العجاج يجاهدون صابرين ليلقنوا المعارف إلى الشباب المحجم عن معارفهم ، والعاهرات يخففن من شبق الرجال الواسعى الخيال ؛ والشعراء يستعيضون عن آمالهم الخائبة بقرض الشعر ، والفنانون يعيشون على الطوى وهم يسعون وراء الكمال ، والقسيسون ينهمكون فى السياسة ويواسون الفقراء والمنكوبين ، والفلاسفة يجاهدون ليخرجوا من متاهة الأساطير إلى سراب الحقيقة البراق . وكان فى هذا المجتمع دوافع للعمل ، وأسباب لإثارة النفوس ، وللتنافس ، تقوى أذهان الرجال وألسنتهم ، وتستثير ما لديهم من قوى مختزنة لم يكن أحد يتوقع وجودها فيهم ، وتغربهم بتمهيد السبيل للنهضة وتهيئة أسبابها . وهكذا جاء البعث الجديد بعد أن عانت المجتمعات فى أوربا كثيراً من الآلام ، وأريقت فى سبيله أنهار من الدماء .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXIII

1. Thompson *Middle Ages*, I, 565'
2. Le Strange, *Palestine under the Moslems*, 202.
3. Coulton, *Panorama*, 327.
4. Lacroix, *Military and Religious Life*, 108.
5. Ogg. 282-8.
6. William of Malmesbury, 358.
7. *Chanson de Roland*, II. 848f. in French Classics, Paris, n.d.Lib. Hatier.
8. Munro, D. C., in *N. Y. Herald Tribune*, Apr. 26, 1931.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 389.
10. Guizot, *France*, I, 384.
11. Lacroix P. *History of Prostitution*, 904.
12. Guizot, *France*, 338.
13. *Cambridge Medieval History*, IV.
14. Gibbon, VI. 334.
15. *Gesta Francorum*, app.
16. Thompson, *Social and Economic History* , 396.
17. Gibbon, VI, 75.
18. William of Tyre, *Sieg. of Jerussalem*, ch. clxi,
19. In Taylor, *Medieval Mind*, I,551.
20. Albertus Aquens in Milman, IV, 38n.
21. Thompson, *Economic History*, 897.
22. Archer aud Kingsford, *Crusades* 171.
23. Milman, IV, 251.
24. William of Tyre, xxi, 7.
25. Archer 176.
26. Muir *Caliphate*, 587.
27. Guizot, *France*,427 f; *Cambridge Medieval History*, V. 307.
28. Adams, B. *Law of Civilization and Decay*, 94.
29. In Munro and Sellery, 275f.
30. Lane-Poele, *Saladin*, 175.
31. Ibid., 205f.
32. 232.
33. 236.
34. De Vaux, Carra, *Pensears d'Islam* I, 26.
35. Guizot, *France*, 439f ; Gibbon, VI, 119.
36. Lane-Poele. *Saladin*, 307.
37. Ibid., 351f.
38. 357.
39. Ibid.
40. De Vau, I, 27.
41. Lane-Poele, *Saladin*, 367.
42. Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales*, i, 3.
43. Adms, *Civilization and Decey*,
44. Gibbon, ed. Bury, VI. 528.
45. Villehardouin, Introd., xvii.
46. Adams, *Civilzation and Decay*, 130.
47. Gibbon, VI. 100.

48. Oman, C. W. C., *Byzantine Empire*, 280-2.
49. Robert of Clari in Villehardouin, Introd., xxiv.
50. Villehardouin, 31.
51. Jackson, Sir T. C., *Byzantine and Romanesque Architecture*, I I, 101.
52. Diehl, *Memuel*, 635.
53. Dalton, *Byzantine Art*, 538.
54. Gibbon VI. 171.
55. Beard Miriam, *History of the Business Man*, 109.
56. Encyclopaedia Britannica, VI. 788; MacLaurin, C., *Mere Mortals*, II, 215f.
57. Kantorowicz, E. *Frederick II* 185f.
58. Villehardouin, 177
59. Ibid., 220.
60. 320.
61. Day, Clive, *History of Commerce*, 88.
62. Hitti 346.
63. Guizot, *Civilization*, I, 534.
64. Lea, *Auricular Confession*, III, 152.
65. *Speculum*, Oct. 1938, 391.
66. In Gibbon., VI. I, 25n.
67. *Speculum*, Oct. 1938, 403.
68. Hitti, 665.
69 Arnold, *Legacy of Islam*, 60.

CHAPTER XXIV

1. Day, *Commerce*, 57; Pirenne, *Medieval Cities*, 87.
2. Boissonnade, 173.
3. Thompson, *Economic History*, 577.
4. *Speculum*, Apr. 1940.
5. Boissonnade, 173.
6. Coulton, *Panorama*, 325.
7. Ibid , 322.
   History, VI. 491.
8. Beard, 79.
9. Zimmern, J. W., *The Hansa* Towns, 183.
10. Ibid., 95.
11. Ibid., 152, 200.
12. Thompson, J. W, *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 451.
13. Id. *Economic and Social History, of the Middl Ages*, 581.
14. *Cambridge Medieval History*, VI, 478.
15. Gest, A. P. *Roman Engineering*, 142.
16. Haskins C. H., *Studies in Medieval Culture*, 101.
17. Usher *History of Inventions*, 135,
18. Thompson, *Later Middle Ages*,
20. Rickard, *Man and Metals*, II,
21. Salzman, L. F., *English Industries of the Middle Ages*, 1.
22. Rickard, II. 595.
23. Ibid., 615.
24. *Cambridge Medieval History*, VI, 500.
25. Renard, G., *Guilds in the Middle Ages*, 24.
26. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 211.
27. Thompson, J. W., *Later Middle Ages*, 5.
28. Boissonnade. 187.
29. Ibid., 186.
30. Pirenne, H., *Economic History*, 113.
31. *Anglo-Saxon Chronicle*, 198.
32. Schoenchof, J. *History of Money and Prices*, 98.
33. Jusserand, J. J. *English Wayfaring Life, in the middle Ages.* 192.
34. Boissonnade, 221.

35. Coulton, *Panorama*, 285.
36. Id., *Five Centuries of Religion*, V, 282.
37. Pirenne, *Economic History*, 120
38. Coulton, *Panorama*, 343.
39. Boissonna de, 167.
40. Pirenne, 128.
41. Pirenne, *Cities*, 223.
42. Mathew Paris, *Historia maior*, 1235, I. p. 2.
43 Ashely, *English Economic History and Theory*, I, 201.
44. Pirenne, *Economic History*, 130.
45. Ibid., 135.
46. Thompson, *Econowic History, of the Middle Ages*, 15.
47. Ibid.
48. Id., *Later Middle Ages*, 449; Day, 93.
49. Schoenhof, 63.
50. Ibid., 57; Thompson, *Later Middle Ages*, 432.
51. Adams, *Law of Civilization*, 167.
52. Lacroix, *Manners, Customs, and Dress*. 272.
53. Davis, *Medieval England*, 376.
54. Zimmern, *Hansa*, 165; Thompson. *Later Middle Ages*, 449.
55. Molmenti, *Venice*, Par. I, Vol. I. Vol. I, 149; Thompson, C.G., *Legacy of the Middle Ages*, 441.
56. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 449-50.
57. Arlstotle. *Politics*, i, 10.
58. Luke *vi*, 34.
59. In Ashely. *Economic Hi tory and Theory*, I, 126.
60. Ibid., 128.
61. Ibid.
62. 156.
63. 149.
64. 411.
65. Coulton, G.G., *Medieval Scene*, 146.
66. Ashley, I, 149, 157.
67. Ibid., II, 405.
68. Pirenne *Economic, History*, 137.
69. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 638.
70. Coulton, *Medieval Village*, 284.
71. Pirenne *Economic History*,
72. Ashely, I, 198.
73 *Cambridge Medieval History*, VI 491.
74. Thomas Apuinas *Summa Theologica*, II liae, lyxviii, 2.
75. Ashley, I, 196; Coulton, *Panorama*, 336.
76. Boissonnade, 166.
77. Ashely, I, 203.
78. Abbott, G. F., *Israel in Egypt*, 112.
79. Baron, S. *Social and Religious of the Jews* II, 16.
80. Rivoira, G., *Lombardic Architecture*, I, 108.
81. Dopsch, 333.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 484.
83. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 792.
84. Lethaby, W., *Medieval Art*, 145.
85. Richard, E., *History of German Civilization*, 195; Lacrox, *Manners* 271.
86. Saunders, O.E., *History of English. Art in the Middle Ages*, 85.
87. Thompson. *Economic History of the Middle Ages*, 493.
88. Id., *Later Middle Ages*, 196.
89. Day, 47.
90. Coulton, *Medieval Scene*, 92.
91. Walsh, J. J., *Thirteenth the Greatest of Centuries*, 437..
92. Barnes, *Economic History*, 184; Renard, *Guilds*, 87.

93. Ashley, I, 81.
94. Addison J., *Arts and Crafts*, 2.
95. Power Eileen, and Power, R., *Cities and Their Stories*, 74
96. Bebel, 59.
97. Villari, P , *Two First Centuries of Florentine History*, 35.
98. Guibert of Nogent, *Autobiography*, 6-bis, 7-9.
99. Pirenne, H., *History of Europe*, 276.
100. Boissonnade, 207; Renard, *Guelds*, 92; Coulton, *Panorama*, 293; Schevill, *Siena*, 68.
101. Barnes. *Economic History*, 162-3.
102. Gay, 51.
103. Headlam. C., *Story of Nuremberg*, 152.
104. Salzman, 335.
105. Pirenne, *Economic History*, 213.
106. Coulton, *Chaucer*, 128; *Medieval Village*, 329.
107. Boissonnade 237.
108. Pirenne, *Cities*, 75.
109. Barnce, *Economic History*, 163.
110. Clapham and Power, 337.
111. Ibid.
112. Matthew Paris. I, 11, 42, 48, 156, 164, etc.
113. Coulton, *Panorama*, 456.
114. Porte, *Medieval Architecture*, II, 149.
115. Thompson, *Economic History of the Middle Age*, 801.
116. Guizot, *France*, I, 614.
117. Beard , 85,
118. In Zimmern, *Hansa*, 49.
119. Coulton, *Social Life in Britain*, 11; Schoehof, 125.
120. Rogers J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 92; Jusserand, 99; Schoenhof 119.
121. Rogers, 73; Renard 16.
122. Matthew Paris, 1251 : *Middle Ages*, I, 270.
123. Munro and Sellery, 498.
124 Pirenne. *Economic History*, 203.
125. Ashley, I. 82.
126. Ralph Higben's *Chronicle*, viii, 145, in Coulton, *Social Life*, 356.
127. Beard, 145.

CHAPTER XYV

1. Benjamin of Tudela in Konroff, *Contemporaries*, 265; Diehl. *Manuel*, 390.
2. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
3. Vasiliev, A. A., *History of the Byzantine Empire*, II, 151.
4. Matt. Paris *Chronica, maiora* 83.
   Historia minor, ril, 38-9, in *Cambridge Medieval History*, IV, 493.
5. Vasiliev, II, 237, 241.
6. Finlay, G., *History of Greece* III, 372.
7. Kluchevsky, I, 185 ; Pokrovsky, 78.
8. Ramband, I, 96.
9. Vernadsky, G., *Kievan Russia*, 93-5.
10. Ramband, I, 129; Kluchevsky, I 323.
11. Vasiiev, II, 237.
12. Ramband, I, 154.
13. Affirmed by Karamsin, denied by Soloviev cf. Rambaud. I, 169
14. Rambaud I, 172.
15. Morey, *Medieval Art*. 158f.
16. *Cambridge Medieval History*, VI, 468.
17. Lönnrot, E., *Kalevala*, I, vii.
18. Rambaud, I. 144.
19. Lützow, *Bohemia*. 44

20. *Cambridge Medieval History*, V, 348.
21. Richard, *German Civilization*, 186; Thompson *Feudal Germany* 161.
22. Richard, 186.
23. Carlyle, R. W *Medieval Political Theory*, V. 88 ; III, 86.
24. Freeman, *Norman Conquest*, II, 181.
25. *Anglo-Saxon Chronicle*, 168.
26. Ibid., 163.
27. Voitaire, *Works* XIII, 274.
28. Hume, D., *History of England*, I. 504.
29. Davis, *Medieval England*, 355 ; IV, 298, 302.
30. Stubbs, *Constitional History*, I, 303; Ereeman,*Norman Conquset*, IV, 430.
31. Ibid., 714.
32. Vinogradoff, P,, *English Society in the Eleventh Century*, 472, Coulton, *Medieval Village*, 11.
33. Stubs, I, 330.
34. Encyclopaedia Britannica, XI, 432.
35. Cf. *Anglo - Saxon Chronicle*, 206-8.
36. Coulton, *Life* III, 5-7 *Panorama*, 229.
37. Ppllock and Maitland, I, 104 ; Freemau, *Historical Essays*, 2d. Series, 114.
38. Text in Rowbotham. 62.
39. Coulton, *Panorama*, 231.
40. Hume D., *I*, 478.
41. Holinshed, *Chrouicle*, 18.
42. Ogg., 304-10.
43. Jenks. 35.
44. Poilock and Maitland, I, 138.
45. Encyclopedia, Britannica, VIII, 9a.
46. Draper, *Intellectual Development of Europe*, II, 81.
47. Pollock and Mait'and, I, 465.
48. Coulton, *Panorama*, 379.
49. Home, *Roma London*, 118.
50. *Speculam* Jan 1937, 20.
51. Coulton, *Panorama*, 297.
52. Joyce *Irland* 246-8 ; Hume, I, 356. Cardinal Gapiquet *(Monoslic Life in the M. Ages* 169) argnes unconvincingly against the authenticity of this bull.
53. In Colton, *Panorama*, 66.
54. Brown, P.H. *History of Scotland* I, 88.
55 Thierry, A , *Conquest of England by the Normans*, I. 21.
56. Blok, P. J. *History of . . . the Netherlands*, I, 230.
57. May, Sir T., *Democracy in Encope*, I, 338-9.
58. Encyclopaedia Britannica, XXI, 912 c.
59. Guizot, *France*, I, 524.
60. Ibid. 312.
61. 522.
62. Belloc, *Paris*, 154.
63. Adams, H. *Mont St. Michel and Chartres*, 177.
64. Joninville, *Chronicle*, 153.
65. Lacroix, *Manners*, 32.
66. In Munro and Sellery, 520.
67. Joiniville 308.
68. *Cambridge Modieval History*, VI, 347.
69. Joinville, 139.
70. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 365.
71. *Cambridge Medieval History*, VI, 349.
79. Joinville, 149.

78, Ibid., 310; Guizor, *France I*, 556; Munro and Selly, 496.
74. Joinville, 316
75. Munro and Sellery, 498.
76. Joinville, 148.
77. Munro and Sellery, 493, 500.
78. Guizot, *France*, I, 543.
79. Joinville 150.
80. Guizot, *Civilization*, I, 148; Lacroix, *From St. Francis*, 140.
81. Coulton, *From St. Francis*, 140.
82. Guizot, *France*' I, 452.
83. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 44; Porter, *Medieval Architecture*, II, 264
84. Thompson, 40.
85. Ibid 22.
86. Hearnshaw, F., *Medieval Contributions to Modern*, Civilization, 67; Encyclopaedia Britanica, X, 702b; Hearnshaw. *Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinaers*.145, 157, 163.
87. *Cambridge Medieval History*, VI, 409.
88. Thompson, 349.
89. Chapman, C. E., *History of Spain*, 90.
Carlyl, R. W., *Political Theory*, V. 134.
90. *Cambridge Medieval History* VII, 695 - 702,
91 Pirenne, J., *Les grands courants*, II, 157.
92. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, I, 58.
93. Sterling, M. B., *Story of Parzival*, of.
32. 310.

CHAPTER XXXVI

1. In Wern, *Sicily*, 86.
2. *Cambridge Medieval History*. VI, 131.
3. Sarton, II (1), 119.
4. In Waern. 50f.
5. Bryce. 292.
6. Catholic Encyclopedia I, 749a.
7. Hazlitt, W C, *Venetian Republic*. I, 190f.
8. Molmenti, I (1), 82.
9. Ibid., 841.
10. 145.
11. Thompsod, *Eonomic History of the Later Middle Ages*, 11.
12. Beard, 107.
13. Ruskin, *Stones of Venic*, I, 8.
14. Beard, 102–5.
15. Dante, *Eleven Letters*, 190, letter of March 1314 to Guido
16. Molmenti, I (2), 49, 53.
17. Ibid, 9, 13 - 15; Sedgwick, H.D., *Italy in the thirteenth Century*, II, 200.
18. Molmenti, I (2), 139, 154, 157.
19. Molmenti, I (1), 204.
20. Beard. 146.
21. Coulton, *From St. Fraucis*, 215.
22. Ibid.
23. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 421.
24. Sedgwick, I, 175.
Cambridge Medieval History, V, 230.
26. Kantorowicz, 26.
27. Ibid., 30.
28. *Cambridge Medieval History*, VI, 137.
29. Kantorowicz, 204.
30. Ibid , 219.
31. 282.
32. 310.
Cambridge Medieval History, VI, 150.
34. Kantorowicz, 288.
3 . Ibid , 529.
36. Pirenne, J., *Grands courants*, II, 114; Kantorowicz, 311.

37. Ibid. 30.
38. 365.
39. 365.
40. Matt. Paris, 1228, 157.
41. Ibid.
42. Sedgwick, I, 133; Kantorowicz, 308.
43. Ibid., 251.
44. 343.
45. 460.
46. 615.
47. 624 - 32.
48. Nietzsche, F., *Beyond Good and Evil*, // 200.
49. Kantorowicz, 611.
50. Sedgwick. I, 440 ; Kantorowicz, 332.
51. Ibid., 292.
52. Milman, VI, 240f.
53. Renard. 42; *Cambridge Medleval History* VI, 496.
54. Thompson, *Later Middle Ages*, 259.
55. Beard, 140.
56. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 471.
57. Vi lari, *First Centuries of Florentine History*, 178.
58. Ibid , 221.
59. 598.

obeikandl.com

قصة الحضارة

دائرة معارف كبرى فى حضارة العالم من أقصى طرفة الشرق فى اليابان والصين إلى أقصى طرفه الغربى فى أمريكا ومن أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحاضر . وهى أهم مؤلفات الكاتب الأمريكى الكبير ول ديورانت الذى خصها بالجزء الأكبر من حياته ، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة . وستتألف بعد تمامها من سبعة مجلدات .

obeikandl.com

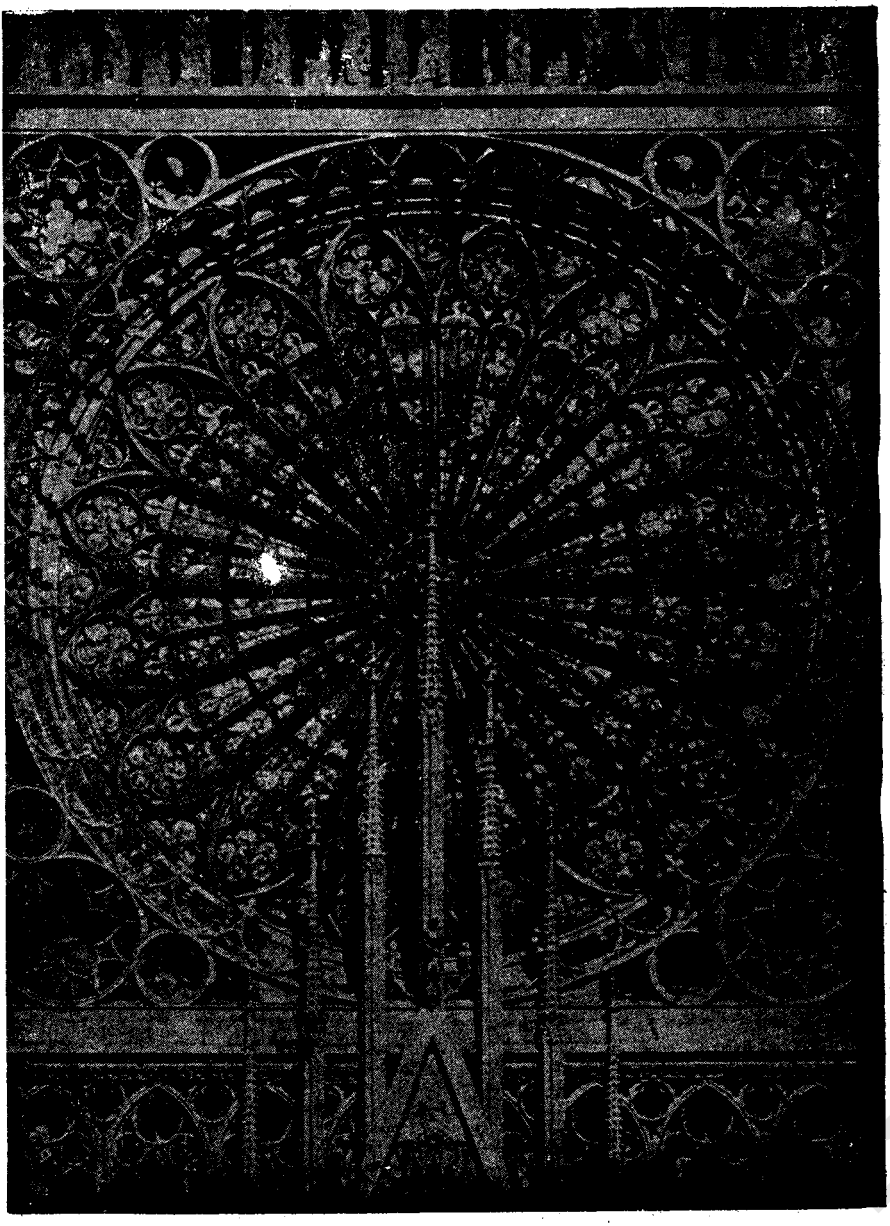

(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج.